

الفصل الثالث عشر

الحرب

آذار — : آب سنة ١٨٤٨

وبينا كان الملك شارل البرت يتأهب للحرب كان القائد النمسوى راديتسكى ينسحب رويدا رويدا على طول طرق لمبارديه للاحتماء بالقلاع الأربع وكانت الحكومة الموقفة التى تألفت فى نهاية الأيام الخمسة تحرص على حماية الأموال والأموال وفيها رية من أن يكون المتطوعون جمهوريين ، وقد اشترك منهم بضع مئات فقط فى الحرب ، وبقي الآخرون يضحكون على ذقن راديتسكى . وكان الحكم النمسوى المديد قد جنى ثماره لأن عجز الرؤساء وفقدان فكرة التضحية لدى الجماهير كانا قد دمرا رجولية الشعب . أما فى بيمونته فقد قضى الملك وقته فى المجالس الحربية ، وظل مترددا من أن يخطو الخطوة الحاسمة فأضاع بذلك فرصة قطع خط الانسحاب على قوات راديتسكى . واجتاز الفيلق الأصلى البالغ من القوة الثلاثة وعشرين ألفا نهر تسينا فى ٢٥ آذار ، ولم يصل إلى (كريمة) الا بعد مسير تسعة أيام وكان راديتسكى فى اثنائها قد انسحب إلى فيرونه بعد أن تغلب على المتطوعين فى الشرق وفى

الغرب . وحين التفت حوله الحاميات الأخرى بلغت قواته زهاء ستين ألفاً ، رابطة في القلاع الأربع (فيرونه — مانتويه — بشييرا — لجناجوا) حتى إذا ما فترت الحماسة القومية استطاعت المفرضات النمسية أن ترسخ قدمها في الايلات الإيطالية ، وأخذ التلاميذ من أهل فينا الذين هم أسقطوا الحكومة يتطوعون للقتال في إيطالية ضد الحرية .

وكان الجيش النمسي رغم كونه خليطاً من ست قوميات تربطه روح الجماعة ، حتى أن أكثر الجنود الطليان لازموا الجيش طول الحرب ، وبرزوا صداقتهم وثباتهم . وكانت قوة الجيش البيمونتي تقدر بخمسة وأربعين ألفاً يعسكرون على ضفتي نهر (مينجيو) ، وكانت قوات طوسكانه و نابولي ومودينه نحو اثني عشر ألفاً تقف أمام مانتويه في أقصى جانبه الأيمن ، وهناك أربعة آلاف من المتطوعين في التيرول وكان نحو من ثلاثين ألفاً من أهل روما والبندقية ومن الهاربين من الجيش النمسي في فنيسية أو على وشك الدخول فيها . وكانت المدفعية والخيالة البيمونتي تتفوقان على المدفعية النمسية وخيالتها ، إلا أن الجيش النمسي كان أحسن تدريباً وعدة من الجيش البيمونتي ، وكان أكثر قادة الجيش البيمونتي قليل الخبرة والكفاية .

ظل جيش الملك عاطلاً أمام فيرونه خمسة عشر يوماً ، كان المتطوعون في أثناءها يتقدمون زرافات وكانوا مزيجاً غريباً من

كل الأعمار ومن جميع الطبقات والإيالات ، فمنهم شباب من عليـة القوم ، ومنهم طلاب وعمال ومن الجنود القدماء الذين اشتركوا في معارك نابليون ، ومنهم أساتذة كهول وقرويون ونمسيون هاربون من الجيش وقطاع طرق .. الخ . وكان باستطاعة الأربعة آلاف الذين يؤلفون جيش الآلية من متطوعة ميلانو وجنوه وبارمه أن يقطعوا على راديتسكى خط الانسحاب لو ساعدتهم قوة من الجيش النظامى ، بيد أن الملك شارل البرت أمرهم بالانسحاب إلى برشيه وبارغامه للانخراط فى السكتائب المباردية الحديثة التشكيل ، لأنه كان لا يميل إلى إضعاف قوته بإفراز جزء إلى التيرول من جهة ، ولأنه كان يخشى الاختلاطات الدبلوماسية التى قد تؤدى إلى احتلال التيرول من جهة أخرى . وظل الجيش يقضى وقته فى مناورات لا فائدة منها وبمظاهرات عابثة أمام بشيرا ومانتويه . وكان جنود طوسكانه ونابولى فى الجنوب فى (كرتانونه وموتنانه) يراقبون قلعة مانتويه . وطلب أهل فرّاره من الملك المهجوم على المدينة ووعدوه هم بدورهم أن يشوروا ، ولما كان الموقف السياسى يتطلب نصراً عاجلاً حاسماً فإن قوات ييمونته هاجت سلسلة الروابى ، ومع أن المهجوم كان قد نجح فإن الملك المتردد أمر جنوده بإخلاء القرية التى ضبطوها والانسحاب إلى مواضعهم .

وأوشك أن يقع ما كان مازينى يتحاشاه دائماً إذ أنه من

الصعب أن يترأس أحد أمراء إيطاليا الحركة القومية من دون أن يحرّك غيره الأمراء الآخرين ، ولا سيما لأن لكل عرش إيطالي مطمحاً في الحصول على بعض الأراضي ، فلوروما مطامح في بارمه وروفيجو ، ولنابولي في (أنكونه) ، ونطمح طوسكانه وبيمونتة في ضم (لونيجهان وماسا كرايه) . وقد يطمع شارل البرت ولثوبولد في تاج صقلية أضف إلى هذا أن بعض العناصر المهمة في طوسكانه وروما ونابولي كانت تخشى قبل كل شيء الانتحاق في بيمونتة ، ولخافهم هذه بعض الأساس إذ أن رجال الوحدة كانوا يرغبون في أن يروا شارل البرت ملكاً على إيطاليا جميعها . وكان يطلق على هؤلاء الذين اعتنقوا مذهب جيورتي وبالبو اسم (رجال البرت — الإلبريني) ، وقد انبثوا بعد نشوب الحرب في لونيجهان ومودينة وبارمه وأخذوا يعملون فيها بنشاط . وكان (جنولي) و (بيركت) في فلورنسة و (سابافينه) في نابولي و (ممياني) إلى حد ما في روما يسعون لإقامة مملكة إيطالية موحدة بزعامة آل صافويه .

فلذلك أخذت طوسكانه ترتاب من جانب بيمونتة لما أعلنت نابولي انضمامها إلى الاتفاق في ١٥ — آذار . أما البابا فانه حاول بعد اعلان الحرب أن يتخلص من تبعته بتمطيط جبل الذاكرات وشاهد أن طوسكانه وبيمونتة مستعدتان لها ، غير أن باريثو أجاب فوراً بأن الحرب تتقدم على كل شيء ، وعاضد الاقتراح القائل

بالاتفاق الهجومي ، فأرسل البابا في ١٨ — نيسان رفضه البابا في الانضمام إلى الاتفاق ، وبذلك خابت آماله في إيجاد طريقة حل سلمى فضلا عن أن غضبه من ضياع بارمه وشكوكه من مطامع ييمونته في الروماني ومطامع نابولي في المارك شجعت مياله نحو اهمال القضية . والواقع أنه كان بابا قبل أن يكون وطنيا ولعله لا يبالى بالاستقلال القومي أكثر من اهتمامه باسترجاع الأراضي التي كانت البابوية تدعيها ، فذلك نراه يبارك أعلام القطمان من جهة ويأمر من جهة أخرى قائدها الجنرال جيوفاني ويراندو بأن لا يجتاز الحدود إلا لاحتلال روفيجو التي كان يدعي أنها له ، واحتج بشدة على الأمر اليومي الذي أصدره دوراندو للجنود ذا كرا فيه أن البابا يبارك سيوفهم . بيدانه قال بعد انقضاء بضعة أيام انه ينحني أمام الحوادث ووافق على أن تجتاز قواته نهريو .

ومع ذلك فإن البابا لم يكن يريد أن يذكر اسمه مع اسم شارل البرت في صبيحة الحرب الصليبية الجديدة ، وأخذت طلبات الانشقاق ترد إليه من الأساقفة الألمان فاصبح على استعداد أن يضحي بكل شيء بدلا من أن يكون سببا في تضحية الكنيسة على هذه الصورة ، ولذلك فانه أعلن في ٢٩ — نيسان انفصاله النهائي عن الحزب القومي ، وذكر في رسالته العامة أن الحرب ضد النمسه تخالف مبادئ بابا يحب جميع الشعوب وجميع الأمم ويساوى بينها في عاطفة الود ، وقد فقد بذلك نفوذه الشعبي

فأصبحت الدولة في يومين أو ثلاثة بلا حكومة ، وطلب قسم كبير من الناس استقالة الحكومة الأولى وتعيين حكومة مؤقتة . ثم حاول البابا بعد ذلك أن يصحح خطأه فكتب إلى امبراطور النمسة يطالب إليه أن يتخلى عن الأيالات الإيطالية ، ووعد شارل البرت أن يساعد جنوده في الحركة إذا رفض الامبراطور الصلح .

ولكن حدث بعد رسالة البابا أن خانت نابولي القضية ، ولم تكن البلاد في حال تستسيغ معه الحكم الدستوري لا سيما حين يكون الملك مخادعا والشعب خاملا فالوزارة كانت عاجزة والصحافة بدلا من أن تنصرف إلى تنوير الناس ، فقد انهمكت في أعمال غير مشرفة . وأصبحت البلاد بهزات عنيفة حتى تجلى للدهاء أن الحرية لا تجلب الخير . أما القرويون فلم يكونوا ليهتموا بالدستور وانما كان همهم أن يتقاسموا الأملاك العامة وأن يملكوا الأرض التي كانوا يرون بأبصارهم إليها من القديم ، ولم يرحب المتطرفون بدستور يستند إلى تصويت ضيق ومجلس أعيان معين . وقد عبر الوزير المستقيل (ساليستي) عن آرائهم حين طالب بأن يكون حق الاقتراح شاملا وأن يكون مجلس الأعيان من المنتخبين وأن تبادر نابولي إلى الاشتراك في الحرب ضد النمسة . ثم اضطرت الوزارة أمام الحاح الشعب إلى الاستقالة واستعد الملك للخضوع للمعاصفة ، فكلف بيه بتأليف الوزارة ، بيد أن طلبات بيه كانت أشد من طلب ساليستي ، فقرر الملك أن يكافح المتطرفين واختار

لرئاسة الوزارة المؤرخ (كارلوتروبه) ، ولم ير هذا بدأ من التفاهم مع الراديكاليين، وترك البت في موضوع مجلس الأعيان والتعديلات في الدستور إلى المجلس النيابي ، وجهر برأيه الصريح في الاشتراك في الحرب والانضمام إلى الحلف ، وأرسل كتيبة إلى ميدان القتال في ليمارديه على أن يعقبها بيه بالقسم الكلى من الجيش . ولم تستطع الوزارة أن تسيطر على الموقف أمام دسائس الملك والموظفين من جهة وأمام الجمهوريين والاشتراكيين من جهة أخرى . وكان الرجعيون على أهبة الصيد في الماء العكر لمناسبة توزيع الأرض ووعظ أحد الرهبان في ساليترنه مجبذاً الاشتراكية داعياً إليها فرأى الملك أن الفرصة قد سنحت له ، ونعلم أنه قد فقد شجاعته في الثورة الافرنسية ومن المحتمل أنه حين أذعن للواقع إنما أراد أن يستغل الحركة ويستجلب الأحرار لاسترداد صقلية وتقسيم إيطاليا بينه وبين شارل البرت ؛ ولكنه الآن بدأ يمثل دور الخائن فاعتبط حين رأى الفرصة قد سنحت لكي يعود الرجعيون إلى الحكم خوف الناس من الاشتراكية وظهور عجز الحكومة ، وقد جعلت الرسالة التي وجهها البابا الأكليروس بجانبهم ، واستعد الضباط والقرويون لتدبير مؤامرة ضد الأحرار ، وحين اقتنع الضباط بأن الأحرار يريدون إرسال الجيش إلى الشمال ليتخلصوا منهم أخذوا يتظاهرون ضد الحرب .

لقد جرت الانتخابات وظل القسم الأعظم من الشعب لا يأبه لها ، ولم يشترك فيها إلا الخمس ممن لهم حق الاقتراع ، وقد أعيد انتخاب الأحرار المعتدلين في كل محل ، وسرعان ما بدت للنواب الشكوك حين طلب إليهم خطاب العرش أن يقسموا اليمين بأن لا يغيروا الدستور الحالي ، فاعتبروا هذا التكليف نقضاً لما تعهدت به الحكومة من إصلاحات اجتماعية ووعدت أن تعرضها عليهم ، وبعد أخذ ورد وافقت الحكومة والملك على حذف تلك الصيغة من النص رسمياً ، وظل الفريقان على تباين في الاتجاه والميول حيث تعذر التفاهم بينهما . وقد أخذ المهيجون في كلبريه وساليرنه والبهض من الحرس الأهلى يستعدون للحرب الأهلية ، فأقيمت الموانع والمتاريس ، وأدرك أولو البصيرة من الأحرار وخامة العاقبة فحاولوا إصلاح ذات البين ، إلا أن الحرس الأهلى أطلق لنفسه العنان مما أدى إلى خوف الملك ، فحشد أمام قصره اثني عشر ألفاً من الجنود ، فلم يبق للأحرار مندوحة عن القتال والنضال ، وزحف حرس ساليرنه الأهلى نحو العاصمة ثم أطلقت أول رصاصة ونشبت معركة عنيفة بين الأهالى والجنود استمرت من الصباح حتى المساء . وكان الجنود من السويسريين قد قتلوا كل من وجدوا أمامهم ونهبوا كل ما عثروا عليه ، فالتهب النيران وسالت الدماء غزيرة وكان الملك يحرص الجنود من شرفة قصره . وبينما كان النواب مجتمعين يتخذون المقررات طردهم الجنود من اجتماعهم واجتمع

رجال جمعية اللازارى والرهبان أمام القصر وهتفوا قائلين «فلتسقط الأمة» ، ومعنى ذلك أن جنوب إيطاليا تنسك للقضية القومية فأرسل رسول إلى بيه يطلب إليه العودة وقد لحق به من بولونيه حين كان على وشك عبور نهر بو خلافا للأمر المعطى إليه .

وبهذا ظل الملك شارل البرت يكافح وحده عن القضية القومية ، ومع أن تحلف البابا وخيانة ملك نابولى قد حرماه من نجدات جنودهما ، فإن الموقف كان فى مصلحته ، ولم يبق أمام الذى يرغبون فى وحدة إيطاليا والذين يريدون أن يشاهدوا قوى الأمة مجتمعة تخوض غمار الحرب إلا أن يختاروا أحد أمرين ممكنين : الالبرتيه أو الجمهورية ، وكان الجمهوريون فى هذا الميدان أقلية ، تنحصر فى بعض الجماعات من الطلاب وبعض العقلاء من عمال المدن ، وكان أكثرهم وعلى رأسهم مازينى على استعداد لترك كل دعاية للجمهورية اذا ارتضى شارل البرت أن يتبنى بصدق وإخلاص المنهج القوى الديموقراطى ، وقد قوى أنصار ملكية شارل البرت أن عقلية قدمت تاجها إلى ابن الملك ، وأن حزباً قوياً فى الرومانى كان ينتظر إشارته للالتفاف حوله ، ومما يجدر ذكره أن القوى الشعبية كانت هى المسيطرة خارج إيطاليا ، فى فرنسه كانت الجمهورية قوية وفى فينا كان الطلاب على وشك أن يطردوا الأمبراطور ، وفى هنغارية وبوهيمية حصل الشعب على الاستقلال الوقتى ، وفى ألمانياه أخذ مجلس الأمة يؤدى مهمته الدستورية .

ومع ذلك فإن الملك لم يكن من العباقره الذين يتهمزون الفرص للوثوب ، وكان يدير الحركات العسكرية متمسكاً بما تتطلبه قواعد الحرب المنظمة المرعية ، وقد أظهر بسلوكه مع المتطوعين عدم ثقته بالقوى الشعبية واحتقاره إياها ، وأرسل جيورتي إلى البابا ينشد عطفه من جديد ، وكان شبّح الديبلوماسية الأوربية يقلق بال الملك دائماً ، فرفض مساعدة المتطوعين السويسريين ، وقطع العلاقات الودية التي أسسها الميلانيون مع الهنغارين ، وأضعف شأن الحركة الإيطالية باقتصارها على القسم الشمالى من إيطاليا . وفى شمال إيطاليا نجحت قلة الثبات وروح الاستمرار ، وأعقب الوثبة القومية دور سكون فى لبارديه . وقد تهدمت فيها دعائم الحكم النموى خلال أسبوع واحد ، وتجمّع عزمها ونشاطها لإملاء الفراغ الذى ولده انهيار الحكومة ؛ ولم تبذل كل جهدها فى تأليف جيش لباردى . وقد اتفق الجميع على ترك القضية السياسية إلى ما بعد إذ كانوا يتوقعون أن تنتهى الحرب فى مدة قصيرة ، وترجع لهم أن تترك القضايا التى تثير خلافاً كالمفاضلة بين الملكية والجمهورية والوحدة أو الاتحاد جانباً وقت الحرب حتى إذا نجحت القضية القومية قالت الأمة كلمتها .

أما الملك فكان همه الوحيد أن لا يعطى أية فرصة للجمهوريين ، وأن يضم لبارديه إلى يمينوته ، فلذلك أصرّ على ألا تترك القضية إلى ما بعد ، وأن يبت فيها حالا بتحكيم رأى الأمة بالتصويت العام

بأوسع حدوده . وكان الجمهوريون أيضاً يميلون إلى تأجيل القضية ، وحين عاد مازيني في أوائل نيسان إلى إيطاليا وعد شارل البرت بمعاذته ما دامت مطامحه تشمل الوحدة ، وكان يرتأى أن أول ما يجب الاهتمام به هو طرد النمساويين ، ووعد حكومة ميلانو الوقتية بمساعدته الخاصة . ومع ذلك كله فإنه كان من الصعب أن ترمي القضية الأساسية ظهراً ، وقد أخذ وثاق الأخوة بين المباردين والبيمونتيين يتراخى بتأثير الفشل وخيبة الأمل . وقد استولت الشكوك على النفوس من جراء توقف الجيش البيمونتي . ولما توغل القائد النمساوي (نوجنت) في فينيسيه زاد قلق المباردين على مصير القطر الشقيق ، وراحوا يتساءلون هل هناك خيانة مدبرة كتملك التي وقعت في (كمبر فورميو) سابقاً . وكان الجيش يزداد غضباً للإهانات التي توجهها الصحف الميلانية له فضلاً عن أن الجرائد في ميلانو وتورينو أخذت تتبادل الكلمات القارسة .

وكانت الحكومة المؤقتة نفسها على وشك أن تفقد ثقة الرأي العام ، ولا ريب في أنها مسؤولة عن ذلك بسبب البطء في تأليف القوة المباردية مما أدى إلى تثبيط عزائم المتطوعين واضمحلال حماسهم ولا سيما وقدضعت على رأسهم قواداً مكروهين . وكان في البلد نحو ستين ألفاً من الجنود الذين تركوا الجيش النمساوي ، فلم تتخذ التدابير لتجنيدهم ، فدخل شهر تموز ولم يبلغ

عدد المجندين أكثر من عشرة آلاف . وكان كل الأمور يدل على ضرورة البت في قضية الانضمام إلى بيمونته ، وأنه يجب القيام بعمل يرضى أهلها ، وأن الواجب يقضى قبل كل شيء بأن تشترك لمبارديه في الحرب بهمة كبيرة ، وهناك عوامل أخرى تدعو إلى ذلك وإن كانت قليلة الشأن ، فإنها ذات تأثير أيضاً مثل الخوف من جمهورية اشتراكية وما يسود الناس من الاحترام للملك وما يطمح إليه الناس من مشاهدة ميلانو مرة أخرى قاعدة لبلاط زاهر . وكان أكثر الموظفين ولا سيما الجمهوريون على استعداد للتخلي عن آرائهم الجمهورية إذا تم السير نحو الوحدة بشرط أن يكون الحكم دستورياً وديموقراطياً ، ضامناً للمبادئ الجمهورية الأساسية . وبعد التي واللتما أعلنت الحكومة المؤقتة في أوائل أيار تحكيم الرأي العام في الانضمام أو تأجيل الأمر إلى ما بعد الحرب . وتجاه هياج أهل ميلانو اضطرت الحكومة إلى الوعد بأنه مهما كانت نتيجة التصويت فإن حق الاجتماع وحرية المطبوعات وتأليف الحرس المدني أمور مضمونة .

وجرى التصويت في نهاية الشهر ، فأخذ رجال الملك يعملون في الخفاء ، وكانت الإشاعات تدور بأنه إذا جاءت نتيجة التصويت ضد الملك شارل البرت فإنه سينسحب من الحرب ، ودعى جيورتي إلى ميلانو ليقوم بالدعاية الملكية أمام دعاية مازيني الجمهورية . وأخذ الناس يغنون أنشودة «شارل البرت أو النمسه» فاستنكف

أكثر الجمهوريين من الاشتراك في التصويت ، وصوت القرويون أمام رهبانهم والجنود أمام ضباطهم وقوادهم ، واشترك في التصويت خمسمائة وستون ألفاً ، أعني ثمانية وأربعين بالمائة ممن لهم حق التصويت ، وكان منهم نحو سبعمائة صوت يرتأون التأجيل .

وكان إعلان الجمهورية في فينيسيه من قبل مانين قد عقد قضية الانضمام ، فمانين جمهورى العقيدة حين رأى الفرصة سانحة أعلن الجمهورية ، وكان لا يميل إلى نصف ثورة تستلزم ثورة أخرى لإكمالها . وكان يخشى أن تحول زيادة شوكة بيمونته دون الاتحاد ، وكان يحارب كل شعور إقليمي ويدعو إلى الاتحاد ويترك شأن الوحدة الكاملة إلى مجلس الأمة الذى ينبعث فى روما . ومما لا شك فيه أن عمله قد خلق بعض الصعوبات وقوى الفكرة القائلة بأن على المباردين وأهل جنوه أن يؤجلوا البت فى شكل الحكومة إلى بعد الحرب ، على أن سيطرة حكومته خارج مدينة البندقية كانت وهمية ، إذ أن نار الغيرة القديمة ضد البندقية قد التهمت . ومما زاد فى الارتباك خبر تقدم القائد النمساوى نوجنت فى منتصف نيسان وفقدان وسائط الدفاع ، فقررت المدن الواقعة على الساحل (بادويه وفيسنسه وتريفيسه) بموافقة البندقية الإجماعية أن تنضم لمبارديه وبيمونته ، وكانت ترجع الانضمام إلى لمبارديه إذ أن كل مواطن من أهل فينيسيه كان يرغب فى الانضمام إلى

لمبارديه عاجلاً أو آجلاً ، وذلك لأن تعلقهم بشارل البرت كان قليلاً أو معدوماً ؛ ولكن مسير نوجنت السريع قد وجههم نحو الملك ليطلبوا منه العون . ولما جرى الاستفتاء العام في ٤ — حزيران كان النمساويين قد احتلوا ثلاث ولايات من فينيسيه ، أما الولايات الأربع الأخرى وهي تريفيسه وبادويه وفيسنسه ورفيجو فافتت بأكثرية عظيمة بضرورة الانضمام بالشروط التي اشترطها لمبارديه ، وهي عقد مجلس تأسيسى ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام ويتولى وضع القانون الأساسى .

ولما نجح أنصار الانضمام فى مدن الساحل وجهوا جهودهم نحو العاصمة (البندقية) ، وأخذ البريتون ينشطون ويشترون الأنصار بالمال زاعمين أن الجمهورية تحول دون الوحدة ، وحينئذ تصبح البندقية منعزلة ، وكانت هذه المدينة بوضعها البحرى المنيع غير معرضة لهجوم العدو المباغت ، وظل مانين يعارض فى الانضمام حتى أن الحكومة رفضت بادى الأمر الاستفتاء إلا أنها اضطرت أخيراً إلى الدعوة لانتخاب مجلس يقرر هو مصير المدينة ، وقد نجح أنصار الانضمام فى هذا الانتخاب بأكثرية ساحقة . ولما رأى مانين أنه خسر الصفقة فكر فى أن يحول دون كل انشقاق ، وصرح بما يلى : « انسوا الأحزاب فلم نعد جمهوريين ولا ملكيين وإنما نحن طليان » . وعليه فإن المجلس قد اقترح بأكثرية تكاد تكون مطلقة للانضمام الفورى إلى ييمونته ، فقدم مانين وتوماسو

على أثر ذلك استقالتهما ، ورفرت راية ييمونته فوق القصر . وبعد أن انتهت قضية الانضمام ظهرت قضية عاصمة الدولة في المستقبل ، أتكون ميلانو أم تورينو ، وانشق وزراء ييمونته فيما بينهم في قبول شروط الانضمام ، وكان المحافظون يخالفونها لصيغتهم الديمقراطية ولأنهم يرون على الأخص أن الاقتراح سوف يشمل ييمونته أيضاً . فمجلس الأمة المشروط انعقاده قد يقضى على العرش نفسه وينقله من تورينو إلى ميلانو وبذلك تنهار الهيمنة البيموننتية . وانتهز (باريتو وريجي) أى الأحرار وأهل جنوه هذه الفرصة للقضاء على سيطرة تورينو وادماج ييمونته في دولة إيطالية كبرى ، ولم يكن بالبو الرئيس الذى يستطيع أن يسير الوزارة في مثل هذا الجو فانتقل الجدل من الوزارة إلى المجلس النيابى ، وكانت أ كثرية النواب من المعتدلين ومن الطبقة الوسطى والأشراف ذوى أخلاق قوية إلا أنهم ينقصهم الاختبار . وأرادت الحكومة أن تتمهد بأنها لا تنقل العاصمة من تورينو ومعنى ذلك اللعب بالنار وإغاية لمبارديه ورميها في أحضان الجمهورية الافرنسية . واستطاع باريتو بمعمونة (رتارى) أن يتغلب على المحافظين ؛ فقبل المجلس شروط المباردين بشرط أن لا تمس الملكية بسوء ، وقبل قانون الوحدة بأ كثرية ساحقة جداً . ولكن تنفيذ كل هذه القضايا التى نظر فيها المجلس كان يتوقف على أمر واحد وهو التغلب على راديتسكى ، ولم يكن الجيش البيموننتى في حالة يستطيع

معها التغلب على عدوه من دون أن يكون له حلفاء ، فقضية الإلحاق أغضبت فرنسه وسويسره لأنهما لا يريدان أن يريا على حدودهما أى فى شمال إيطاليا دولة قوية فضلا عن أن ذلك زاد تعنت البابا و نابولى .

وبينما كان شارل البرت يجمع الآراء كان راد يتسكى يجمع الرجال ، فأمدته نوجنت بأربعة عشر ألفاً من الرجال وعلى الرغم من مقاومة المتطوعة وبسالة القرويين فإن نوجنت تقدم برجاله فى ولايات فنيسيه واستولى على بعضها ، وعبثاً حاول أهل فنيسيه حث شارل البرت على إرسال المدد إليهم أو حمله على أن يأمر قوات روما التى أصبحت تحت قيادته بالتقدم ، أما قائد هذه القوات فلم يحرك ساكناً ، وتقدمت متطوعة فراره مع القرويين برئاسة رهبانهم ، واشتركت فى القتال من دون أن ينجدهم أحد . ولما رأى تقدم النمساويين واقترابهم انسحب إلى فيرونه . أما الحبش البيمونتي فبقى عاطلاً أمام هذه الأحداث ، وقد حدث فى أثناء ذلك أن هجم الجيش النمساوى بخمسة وثلاثين ألفاً على جيش طوسكانة البالغ خمسة آلاف ولكن الآخر استطاع أن يقاوم النمساويين ست ساعات فى معركة عنيفة ، أظهر الجنود فيها ضروباً من البسالة والجلد مما يدعو إلى الإعجاب . ولما وصل النمساويون إلى فيرونه وكانت قوتهم تفوق حاميتها التى يقودها دوراندو ضعفين ، ارتأى هذا القائد حقناً للدماء أن يسلم نفسه

وحاميته للنمساويين . وبذلك وقعت كل ولايات فنيسييه الساحلية بيد النمساويين ، وتوسع الحرق بين اللهبارديين والبيمونتين ، وأخذ أهل فنيسييه ولبارديه يوصمون الملك بالخيانة ولا سيما حين شاعت أخبار المباحثات السرية التي كانت تجرى بواسطة وسيط الحكومة البريطانية ، وذلك أن بالمرستون قد بذل جهده لإبعاد شارل البرت عن الحرب ، وكانت سياسته ترمى إلى عزل فرنسه من إيطاليه وإيجاد صلح تصبح فيه إيطاليه حرة .

ولما أصبحت فينا وبوهيميه ساحة للشغب من جديد حتمت الضرورة على رجال الدولة في النمسه البت في قضية إيطاليه فارسلت فينا مندوبا إلى لندن لتوسيط بالمرستون ، وكانت اقترحات المندوب تتضمن منح الحكم الذاتي التام إلى لبارديه وفنيسييه ولكن بالمرستون لم يرض بهذا الحل . ولما ثارت فينا مرة ثانية فإن النمسه عدلت اقترحاتها وقالت بمنح لبارديه استقلالها ومنح فنيسييه حكما دستوريا حرا ، ولكن بالمرستون رفض هذه المقترحات أيضا طالبا أن تترك النمسه البلاد إلى نهر ريبافه على الأقل . فلما رأت النمسه باب انكثرة موصداً في وجهها فكرت في التباحث مع الميلانيين مباشرة للاحتفاظ بفنيسييه ، وكان جواب الميلانيين أنهم لا ينفصلون عن شقيقتهم ، وكانت الوزارة البيموننتيه على ما يظهر ما عدا بالبولاتميل إلى التساهل .

وبينما ظلت الحكومتان حكومة ميلانو وحكومة تورينو

متمسكتين بهودهما ، فإن الملك كان يستعد في الحقاء لأن يضحى
بفقيسيه رغم وعده بأنه لا يغمد سيفه إلا بعد أن يحرر إيطاليا .
وفي أوائل شهر حزيران كان على استعداد لأن يرضى بنهر أدريج
حداً . وبعد مضي أشهر رفع القناع واقترح على النمسة خفية عقد
معاهدة تجزئة ، وأخذت جريدة مازيني تهاجمه بعنف ، بينما كان
عملاء النمسة ينسفون الأرض بنشاط ؛ أما جرائد ميلانو فكانت
تصب اللعنات على الملك والجيش ، وانقلب القسم الأعظم من
الأشراف في بيوموته حين طال أمد الحرب ، وتحلف الاكليروس
بعد اطلاعه على رسالة البابا العامة . أما الطبقة الوسطى فأصبحت
تحشى الحركة الاشتراكية ، وزادت مشقة القرويين في الحصول
على المعيشة ، وانتهز الرجعيون الفرصة وأخذوا يبتون نعمة البابا ،
أما الديمقراطيون فكانوا منصرفين إلى القضايا الاجتماعية أكثر
من انصرفهم للحرب . واستقالت الوزارة وتألقت وزارة أخرى
اشترك فيها جيورتي ، إلا أن البيمونتيين لم يتحمسوا لوزارة
تمثل أقطار إيطاليا الشمالية فيكون للمباردين وأهل جنوه
الأكثرية فيها ، وأرسل جيورتي إلى فلورنسه وروما ليستميل
البابا والدوق الكبير إلى جانب شارل البرت والقضية العامة .

ومهما كانت بلاده رجال الدولة فإنه كان في مقدور البيمونتيين
الاستمرار على النضال في عناد وثبات ، ولولا عجز القيادة لكان

من المحتمل أن بنالو الظفر ، ووردت أخيراً النجدات للجيش
التمسوى فأصبح تفوقه عظيماً ، أما الملك فشنت جيشه على جبهة
طويلة حتى أصبح ضعيفاً في كل مكان إلى أن خسر معركة (كستوزه)
التي جرت في ٢٥ - تموز ، وانسحب باتجاه ميلانو ، وقد تألفت
لجنة للأمن العام في تلك المدينة أخذت على عاتقها تبعة الدفاع عن
المدينة ، وبذلت جهوداً كبيرة فجمعت المال والذخيرة ، وجندت
خلقاً كبيراً من الحرس الأهل ، وقد أظهر أهل المدينة الهمة
والنشاط اللذين أظهروهما في الأيام الخمسة ، ووصل الجيش البيمونتى
إلى المدينة في ٣ - آب ، وكان أول عمل قام به الملك أن الغى اللجنة
وبذلك جلب سحق المدينة ، ولما وصل التمسويون بعدد كبير إلى
المدينة وكان غاريبا لدى قد قدم نفسه ومتطوعيه للخدمة ، إلا أن
الملك رفض ذلك ، وكان غاريبا لدى قد جمع ما يقارب خمسة
وعشرين الفا من الرجال من برغامة وبريسيه ، وبدلاً من أن يقرر
الملك الدفاع عن المدينة فإنه أرسل رسله للمذاكرة مع راديتسكى
حول تسليم المدينة ولما شاع هذا الخبر هاج الشعب وماج وهرع
إلى القصر الذى يسكن الملك فيه محتجاً على عمله هذا .

وقد أضع الملك قواه المادية والأدبية ، وبلغ به العمر إلى درجة
ألمسى معها خاضعاً لكل تأثير ، مع أنه وعد بأنه يسفك آخر نقطة

من دمه للدفاع ، فقد وافق بعد بضع ساعات على نتيجة المباحثات ،
وفي مساء يوم ٦ — آب رضى بتسليم المدينة ، وأعلن ذلك على
الناس فاندفعت الجماهير نحو القصر ترغى وتزبد حتى أنها أطلقت
النار عليه واستعدت لحرق أبوابه ، فأخلى الجيش البيمونتي المدينة
في الليل وتركها لرحمة القائد راديتسكي .

الفصل الرابع عشر

معتدلون ودموقراطيون

آيار — كانون الثاني سنة ١٨٤٨

لقد كان تأثير الانكسار في ييمونته رائعا ، وقد فقدت الوزارة الجديدة كل نفوذ ، وأصبحت البلاد منهوكة القوى ولا أمل في استمرار الحرب إلا بمخالفة فرنسا ، وقد بوشر فعلا بالمذكرة مع باريس ، وكان راديكسكي يهدد الحدود ، وخشى المحافظون الملكيون من قدوم جيش جمهورى من فرنسا ، فتحمل شارل البرت مسؤولية العمل وخول الجنرال (سلاسكو) التوقيع على الهدنة في ٩ آب لسنة أسايبع ، ولم تقض شروط الهدنة بإخلاء (بشميره) فحسب بل إخلاء دوقية فنيسية كلها ، فما كان من أهل ييمونته إلا أن رفضوا بإجماع هذه الشروط التي تعنى التخلي عن القضية القومية إلى حين ، وقد اتفقت الأحزاب على الترحيب باللاجئين المباردين والاستعداد للحركة القادمة .

وكان من الصعب على فرنسا أن تبقى تجاه هذه الأحداث مكتوفة الأيدي . ولا سيما لأن واجباتها التقليدية تقضى بالاهتمام بالعلاقات بين إيطاليا والنمسة . ولما أعلنت الحرب قدمت فرنسا

مقترحات خطيرة الشأن إلى بعض الأشخاص مثل مازيني وبيه ، وطلبت إلى حكومة تورينو الموافقة على إرسال جيش ترصد عبر جبال الألب . إلا أن الشعور العام في بيمونته كان يعارض بالإجماع كل معاونة افرنسية ، وكان مانين الرجل الوحيد الذي قدر أهمية المعاونة الافرنسية ، وطلب إلى فرنسة إرسال أسطولها عبر الإدرياتيك . أما الملكيون فكانوا يرتعدون خوفاً من حلف جمهورى ، وكان الجمهوريون أنفسهم يميلون إلى أن تحرز إيطاليا النصر^(١) ويرى أن تدخل فرنسة قد يشجع الجمهوريين في لمبارديه وفنيسيه من جهة ويعينه على المطالبة بترك صافويه ونيس إلى فرنسة من جهة أخرى . بيد أن أكثرية اللجنة الإجرائية في باريس كانت ضد التدخل ما لم يطلبه الطليان أنفسهم ، فلذلك أجاب نداء مانين بوعدهم عرقوبى ، وعلى الرغم من تعهد فرنسة بالمساعدة حين تطلب منها بصورة رسمية فإنها لم تكن على استعداد لتفديعها ، ولما خسر الطليان معركة كوستوزه ، وفقدت تورينو وميلانو كل أمل في الظفر ترجعت إيطاليا نحو فرنسة ، وشرطت عليها أن تكف من كل دعاية جمهورية وعن المطالبة بترك صافويه مما سوغ لفرنسة أن تسحب كلامها ، فأصبحت المقاومة في الحرب بعد ذلك لا معنى لها ، ومع ذلك فإن بعض الوطنيين المتحمسين كانوا لا يريدون الاعتراف

(١) من دون مساعدة أجنبية . وكان لامارتين وزير الخارجية الافرنسية يحذر قيام ملكية في شمال إيطاليا .

بالانكسار . وكان (كورنتى) وهو أحد الأعضاء الفعّالين فى الحكومة المؤقتة من ميلانو من الذين لا يزالون يقولون بالاستمرار فى الحرب بالقوات المبارذية والمتطوعين حوالى رئيسه ، وكان القسم الأعظم من الجمهوريين يرجعون بأسباب انحذالهم إلى الاتفاق اليمونى ، وكان أكثر المتطوعين قد انسحب إلى سويسره وبيمونته . ولما عاد غاريبالدى من (بونس آرس) فى أمريكية الجنوبية فى شهر أيار حاول عبثاً أن يحصل على رتبة فى الجيش اليمونى ، وكان باستطاعة الملك ووزرائه أن يستغلوا صيت هذا الزعيم وأن يقيموا أهل نيروى ويقعدوهم ، إلا أنهم قابلوا طلبه ببرودة . فقدم إذ ذاك خدماته لحكومة لمبارديه ، فأناطت به قيادة المتطوعين فى برغامه . وبينما كان فى موتر يستعد للهجوم على النمساويين اتصلت به أخبار الاستسلام فانسحب مع مازينى إلى أرونه حيث طلبت إليه الحكومة اليمونتيه أن يسرح جنوده وأن يترك البلاد ، فثأثر كثيراً من هذا الطلب ومع أنه تعهد احترام الهدنة إلا أنه نشر راية مازينى فى لوبنو وأعلن الحرب الشعبية ، بيد أن راديتسكى وجه إليه قوة عظيمة اضطراً ماها إلى الانسحاب إلى سويسره . ثم أرسل النمساويون قوة إلى الرومانى واحتلوا بولونية فما كان من أهلها إلا أن هبوا للدفاع عن بلدتهم فهاجموا الجنود فى الطرقات بالخناجر وبعد معركة دامية وجهاً لوجه استمرت ساعتين أئخنوا فيهم وهزموهم .

وكان الموقف السياسى فى الامبراطورية النمساوية قد تحسن بعد أن قضى القائد (وندشجرستس) على ثورة بوهيمية ، وبعد أن حدث اختلاف بين الهنغارين والصربيين استغله العدو المشترك (النمسه) ، وأعلن المجلس النمساوى ولاءه للامبراطور الذى رجع إلى فينا ، أما فى إيطاليا فاستعادت نفوذها بالانتصارات الباهرة المتوالية . ما عدا فى بيمونته وفنيسيه فإن الناس فى إيطاليا قد أهملوا أمر الحرب ، وقد ظهر أن الكفاح للاستقلال هو ناحية واحدة من مظاهر النهوض فى إيطاليا ، أما الناحية الأخرى فهى السعى فى طريق التحرر الاجتماعى وقد اغتبط الأحرار الممتدلون بالإصلاحات التى تمت بالانقلاب البطئ الذى طرأ على الحكومة الدستورية على أن الجماهير كانت ما تزال تخضع لما تبقى من استبداد الشرطة ، وكانت تتشوق إلى إيجاد مالية شعبية صالحة وإلى سن قوانين عقارية جديدة وإلى تعليم أصلح كما أنها كانت تأمل أن يتم إنجاز الإصلاحات الاشتراكية فى بضعة أشهر ، وكانت تثق بأن البرلمان كفيل بالقضاء على أساس الأوتوقراطية ورفعه إيطاليا إلى مصاف فرنسه وإنجلترا . وقد عظم نفوذ الأندية فى جميع المدن الكبيرة ، وكان العمال العاطلون والمتطوعون فى الطبقة الدنيا لا يزالون يؤلفون عناصر شغب خطيرة . ومع ذلك فإن الديمقراطيين كانوا أكثر تعلقا بالقضية القومية من خصوصهم ، وكانوا يصرحون بأن الأمراء خانوا الأمة أو أنهم لم يحسنوا إدارتها (١٣ م)

فلذلك ينبغي قبل الاستمرار في الحرب أن يتولى زمام الملك من يخلص له .

أما في يعمونته فإن هدة سلسكو قد قضت على وزارة كسالتى ، وأصبحت البلاد مدة أسبوع تدار فعلا من قبل حكومتين ، أى بينما كانت الوزارة لا تريد الاعتراف بالهدنة كان ريفل مندوب الوزارة يعمل للحصول على وساطة الدول الغربية خلافاً لأحكام الدستور ، وكان الملك قد أمر قواته بمقاومة كل تقدم من قبل القوات الفرنسية . وتقلد بنيلى رئاسة الوزارة فلم يقبل هو أيضاً الهدنة وقرر الاستمرار على القتال بمساعدة فرنسه أو بدونه ما لم تنل البلاد صلحاً شريفاً . وقد اتصل بالهنگاريين والسلافيين المستائين وشجع تشكيلات اللاجئين المباردين وطلب إلى غاريا لى أن يستعد ، وكان يأمل بأن تؤدى وساطة فرنسه وأنجلترة الودية إلى الحصول على سلم يرضى الوطنيين ، وكان قرار الحكومة الفرنسية أن لا تشترك بالحرب ما دامت النمسه لا تجتاز نهر تسينا ، ولذلك فإنها لم تأبه للثمن الذى تدفعه بيمونته لقاء الحصول على السلم . أما بالمرستون فكان يظن أن النمسه ستتخلى عن لمبارديه ، ولذلك فإنه طلب إلى حكومة تورينو بأن تصرف النظر عن فينسيه ففعلت رغم تأنيب الضمير . أما النمسه فقد غرتهبا الانتصارات وغرمت على أن لا تتخلى عن أى أرض مع استعدادها لأن تمنح القطرين نوعاً من الحكم الذاتى ودستوراً ، وقد توافق

على أن تأخذ بيمونته دوقية بارمه . أما الحكومة الإفريقية
فبعد تهديداتها التي لا طائل ورائها — وافقت على شروط
التمسه ، وسار بالمرستون إلى حد أبعد من تهديدات فرنسه
وأمر فينا بالموعظات ولكن النمساويين لم يترجحوا عن موقفهم .

وكان من تأثير فشل المباحثات أن تقوى حزب الحرب في
بيمونته ، وأخذ راديتسكى يعذب المباردين باستبداد لا هوادة
فيه ، ويروى عن روفل المندوب أن قال بأن مملكة إيطالية في
الشمال حلم خلاب ، وأن بيمونته يجب أن تهتم بنفسها . ونشبت
في شهر تشرين الأول ثورة ثانية في فينا وتحلت الشعوب
الامبراطورية عن نصرة الامبراطور ما عدا الخروابيين ، فشطت
بذلك آمال بيمونته من جديد ، وكان جيشها قد زاد عدده وبلغ
خمسین ألفاً ، وكانت مظاهرات الرأي العام في الأندية والصحافة
تساعد جيوبرتي ورتازي في هجومهما الصاخب . وكان للمباردين
اللاجئين البالغ عددهم خمسة وعشرين ألفاً تأثير نافذ في هذه
الدعاية ، أما مدينة جنوة فكانت في شبه ثورة حتى أن الملك
نفسه أصبح يتشوق إلى الحرب ، فاجتمع بالمتطرفين خلصة ، وتآمر
مهمهم على قلب وزارته وتبديلها بوزارة حرب ديمقراطية يدخل
فيها مانين وبروفيرو . وأخذت الحماسة للحرب تشتد يوماً فيوماً
في بيمونته ، وقد حاول بنيلي عبثاً تسكينها بتجنيد اثني عشر ألفاً

من جديد . ولما اقترح المجلس النيابي ضده استقال في أوائل شهر كانون الأول فاضطر الملك إلى دعوة جيورجى .

وكانت طوسكانة أيضاً ساحة نزاع بين المعتدلين والديموقراطيين ، وما أسرع ما خفت الحماسة للحرب فاستغل الاكليس رسالة البابا العامة بجمهارة ، أما القرويون فانصرفوا إلى موقفهم التحفظى الطبيعى خوفاً من التجنيد ومن الضرائب الثقيلة ، وكان ريدولفى قد تولى الوزارة فى شهر حزيران ، وكانت وزارته خليطاً من المعتدلين والرجعيين والمكن كفة الآخرين هى الراجحة بسبب ممارستهم شؤون الدولة مدة طويلة . ولما كان المجلس يقضى وقته فى المعاتبة ، فإن السلطة الفعلية غدت بيد الديموقراطيين ، وكانت الأحوال تدل على أن الدولة سائرة نحو الفوضى وقد انهيار اتحاد الشعب عقيب وصول أخبار كوستوزه . ولما استقالت الوزارة عين الدوق الكبير (ريكاسولى) لرئاسة الوزارة ، وكان ريكاسولى هذا متهماً دون حق بأنه يرغب فى ادماج طوسكانة فى بيمونته ، من أجل ذلك رفضت الفروع المعتدلة الأخرى التفاهم معه فظلت البلاد من دون وزارة نحو ثلاثة أسابيع إلى أن استطاع (كابونى) أن يؤلف بين الجماعتين المعتدلتين . وكان كابونى هذا يمت إلى أشرف فلورنسه ويتمتع باحترام الجميع رغم ترددده ، وقد وعد بالاستمرار على الحرب إذا فشلت مفاوضات الصلح ، وبذل بعض الجهود لتقوية الجيش ، وسعى لعقد اتفاق مع روما وبيمونته ،

إلا أن القلائل جعلته ينصرف إلى الأمور الداخلية ، وقد استمر القلق والخوف من احتمال احتلال النمساويين ، وقد ملأ البلاد الجند الفاقدين لمعنوياتهم والمتطوعون المسرحون والمهملون العاطلون . وأخذ الرهبان والأشرف يثيرون الفتن في المناطق الريفية ، وصار المتطوعون والمعلمون يلقون الخطب في الأندية لإثارة الحرب الشعبية . وقد أصدرت الوزارة قانون القمع ، وأغلقت الأندية مما أدى إلى سكون موقت في البلاد ما عدا ليفورنه ، وكانت الثورة قد نشبت فيها أثر شيوع أخبار كوستوزة ، وكان كابوني قد تولى الحكم بعد عدة أيام من ذلك ، فأوقف (حفازى) الذى عاد إلى البلد رغم صدور الأمر بطرده منها . فثار الشعب وقطع خطوط السكة الحديدية واستولى على مخازن السلاح ، ولما أرسل كابوني الجنود إلى ليفورنه قوبل قراره هذا بالتصفيق ، وحاول (سيرباني) قائد الحامية أن يجرّد الجمهور من السلاح إلا أن الجمهور هجم على جنوده وهزمهم ، فاضطر كابوني إلى إرسال (جيرازى) ليميد الهدوء إلى المدينة ، واستطاع هذا بسرعة أن يحمل عناصر الشعب على الطاعة ، ولم يستطع أن يحول دون إعلان الجمهورية إلا بشق الأنفس ، فقررت الوزارة أن تقضى على عش الفساد ، ودعت الحرس المدنى في طوسكانه إلى الاجتماع في معسكر كبير بالقرب من مدينة بيزة إلا أن القسم القليل منهم لبى الدعوة ، وكان هذا القليل أيضاً على استعداد لأن يتآخى وأهل ليفورنه بدلاً من مقاتلتهم ، ففشلت بهذا

سياسة الشدة ثم عادت المدينة إلى حالتها الاعتيادية بفضل عزم جيراڤى إلا أن كابونى رفض الاعتراف به وعين مونتاني حاكماً عليها ، ولم يقبل مونتاني هذا المنصب إلا بشرط أن يمنح الشعب هدفه المحبوب ، وهو المجلس التأسيسى الديموقراطى ، فأصبح من الواضح أن وزارة دموقراطية وحدها تستطيع أن تبقى ليفورنه فى حظيرة طوسكانه ، وتعيد سلطة الحكومة إلى القسم الباقى من البلاد . فاستقال كابونى فى منتصف تشرين الأول ، وفشلت بعده جميع المحاولات لتأسيس وزارة من المعتدلين ، فطلب الدوق الكبير حينئذ إلى مونتاني أن يؤلف الوزارة إلا أن هذا رفض أن يتولى الحكم من دون جيراڤى ، ومع أن الأمير كان قليل الاستعداد لتلبية هذه الرغبة إلا أن الهياج فى ليفورنه وفى فلورنسه ونصيحة وزير أجهلته المفوض له اضطراه للادعاء . وكان الرجلان اللذان أصبحت مقدرات طوسكانه فى قبضتهما لا يشبه أولهما الثانى إلا قليلاً . فمونتاني رجلاً ذكياً محبوباً لسناً صريحاً ، إلا أنه كان يجهل أمور الحكومة كل الجهل ، وكان المعتدلون يحترمونه ورجال الاكايروس يعتبرونه الرجل الذى سيحرر الكنيسة الطوسكانية من نير الحكومة . وكان التلاميذ فى بيزه والعمال فى ليفورنه يحبونه لدفاعه المديد عن الديموقراطية . أما جيراڤى فكان من طينة أخرى ، ورغم أنه لم يلعب إلا دوراً صغيراً فى سياسة إيطاليه فإنه كان يعد من أقدر معاصريه ، وقد تشبع بآراء فولتير وبأرن ،

وجد كثيرًا في اكتساب قوته ، وعركه الدهر إذ دخل السجن ثلاث مرات قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ، وقضى كل حياته في جدال مع الهيئة الاجتماعية ، وكان مقداماً عنوداً . وكانت الغاية التي يتوخاها في قصصه ايقاظ إيطاليه ، وكان يحترق المضطهد والمضطهد . ويقول « ليست الحياة سكوناً » . وقد هدأ النجاح الذي ناله في آخر أيامه من طبعه وجعله يكره دائماً ومن صميم قلبه الجدل السياسي .

أما في روما فقد كان سقوط المعتدلين فظيماً . وفي الأزمة التي تلت نشر الرسالة العامة اضطر الحزب الديموقراطي البابا إلى إناطة رئاسة الوزارة برئيس الحزب مميانتى ، وقد شرط هذا لقبوله رئاسة الوزارة أن يتولى وزارة الخارجية أحد العلمانيين ، كان مميانتى عضواً في الحكومة المؤقتة التي تألفت في بولونية في ثورة سنة ١٨٣١ ، ولما كان متغيباً في فرنسه برز كشاعر ولاهوتى ، ولما عاد إلى إيطاليا سنة ١٨٤٨ اشتهر بين الناس بخطيب وصفي ، وقد أصبح المنهاج الذي وضعه في الإصلاح الاجتماعى المنهاج المقبول في الأوساط الرديكاليه . وكان يرغب في أن يحتفظ البابا بالسلطة الزمنية ، ولكي يبقى نفوذ البابا الدينى خالصاً سالماً وجب على البابا بأن لا يشترك في مسئولية الحكم ، وعليه أن يقبل بالبداء الانكليزى القائل « الملك يملك ولا يحكم » . ثم إنه كان من دعاة الاستقلال ومن المتحمسين ، ويود أن تساعد روما الحرب القومية

بكل ما يمكن ؛ وأن لا يقبل المفاوضة مع التنس ما دام لها جنود في إيطاليا ، كما أنه كان من أنصار الاتحاد وقد آتته خصومه بأنه يرغب في إلحاق الروماني ببيمونتته .

عنى مميانتى قبل كل شئ بإصلاح الحكومة المحلية والمصالح المدنية ، ثم انصرف إلى الأمور الاجتماعية وعمل على تأسيس وزارة للإسعاف العام ومهمتها حماية البؤساء وتعليمهم ، ورأى أن المصلحة فيما يخص التعليم تقضى في تلك البرهة التساهل مع الإكليروس وذلك بالسماح لفتح المدارس الحرة على أن يتولى الرهبان دراسة الدين فيها . وكان منهجه الاجتماعى يتضمن المساواة الاجتماعية التامة وحرية التجارة وحرية التملك وفرض ضريبة متزايدة بنسبة الدخل والعناية بالسكك الحديدية وخطوط البرق والإسعاف والصحة العامة ، وكان القيام بهذه الإصلاحات صعباً بين بلاط خصم لها وشعب نفذ صبره ، ولو كان صلباً لاستطاع أن يحمل البابا على التساهل إلا أنه كان يسعى لجلب رضا البابا . ومن الأمور التى لا يمكن للبلاط البابوى أن يسمح لها أن تترك المخابرة مع سفراء البابا بيد وزير علمانى ، لذلك لم يف البابا بوعده لوزيره الأول وعين لوزارة الخارجية كاردينالا . وقد أذعن مميانتى لهذا آملاً بأن يظفر بموافقة البابا على منهجه الإصلاحى .

على أن قضية الحرب كانت موضوع جدل عنيف بينه وبين البابا حين لم يكن البابا فاقداً استعداد المطف على الحماسة القومية ،

ولما خرق النمسيون حرمة أراضيه في أواخر شهر حزيران ، اعترم إعلان الحرب . ولو قبل باريثو الحلف لتشجع البابا وأمر مميانتى بتعبئة الجيش ، إلا أن باريثو رفض اقتراح الحلف مما جعله مراتباً من مطامح ييمونته أكثر من قبل ، وكان يشعر بأن دخول بابا في الحرب أمر فظيع ، وحاول مميانتى عبثاً حمله على قبول المبدأ القومى . وكان بيوس لا يريد أن يقبل نظرية مميانتى الآتية : « إن البارى تعالى قد قدر أن تعيش الأمم مستقلة بعضها عن بعض بسبب اختلاف لغاتها وجنسياتها وعاداتها » وقد أضاع المعتدلون نفوذهم كقوة سياسية ، وقد أدت الرسالة العامة بإضعافها لنفوذ البابا المعتدل في حركة الحرية إلى تقوية الديموقراطيين ، ومع أن القسم الأعظم من الديموقراطيين كان يسير وراء مميانتى إلا أنه كانت توجد فئة متطرفة تسمى لإقامة جمهورية تكون عبارة عن حكومة مؤقتة . وكان الانفصاليون في الرومانى أقوياء ؛ لذلك لم يستطع مميانتى أن يقوم بالاصلاحات التى عزم عليها بسبب العراقيل التى وضعت في طريقه ، وشعر أخيراً أنه أضاع مركزه . وكانت أخبار الهزيمة فى كوستوزه ضربة قاضية عليه .

وتولى الحكم بعده فايّرى وهو من رجال المؤامرة القداماء شريف النفس وطنى وكان طاعناً بالسن ، وقد اتخذت الوزارة الجديدة خطة مميانتى بشأن الحرب إلا أنها لم تستطع أن تحمى بولونيه من عدوان النمسيين وعدوان عصاة المجرمين بعد انسحابهم

منها ، ثم قطع البابا آخر علاقته بالحكم الدستوري وأجل المجلس
النيابي ودعا بيمونته ونابولي وفرنسه إلى حمايته من النمسه ومن
رعاياه ، ولما لم يثق بفائري اضطره للاستقالة وعين بدله سفير فرنسه
السابق في روما (بليجرينو روسي) .

وكان روسي محامياً وأستاذاً في جامعة بولونيه ، اشترك في حركة
موراث ، ونفى إلى سويسره ثم أصبح بعد ذلك أستاذاً في كلية
فرنسه في باريس ، وكانت دروسه جلبت انتباه (جيزو) رئيس
وزراء فرنسه فأرسله سفيراً إلى روما سنة ١٨٤٥ المفاوضة بشأن
إلغاء المؤسسات اليسوعية . وكان روسي قومياً ومن رجال الإصلاح
ويشارك الأحرار في كثير من وجهات نظرهم ، وكان يسير
الحركة الإيطالية ما دامت ترمي إلى الاستقلال . وكان يشعر
بضرورة وجود حكومة جريئة قوية في روما تضرب بشدة
عناصر السوء في الدولة ، واهتم بالقضية القومية اهتمام مميّز .
وكان قد نشر مؤلفاً في الصيف نصّح فيه البابا بخوض غمار الحرب
وحيثما تولى منصب الرئاسة وعد بتجديد السعي في قضية الحلف
واقترح تقوية الجيش . بيد أنه كان يشارك البابا في شكوكه المتأصلة
ضد بيمونته وادى اندفاعه في مدح البابا إلى تحفظ تورينو ففشلت
مفاوضاته مع بيمونته بشأن الحلف .

وكانت سياسته الداخلية ترمي إلى الإصلاح العقول في الأمور
الاقتصادية والإدارية ، وقد أظهر عزمًا قويًا في إصلاح الإدارة

المتفسيحة وفي الخطوط البرقية وسعى لإنجاز مشاريع السكك الحديدية ، وكان يحتقر المحاورات الصاخبة والمناقشات على السنة السياسيين في أروقة المجالس النيابي . وقد هدد روما بالاحتلال العسكري وآلت تصرفاته غربا لدى وقد أسلم اللاجئين السياسيين إلى فرديناند ملك نابولي ، وكثر خصومه حتى اعتبره الالبريتون من أعداء الشعب ، ونقم منه الموظفون الذين ساقهم إلى الشغل والإكليروس الذي زاد ضريته والأشقياء الذين أخذ حركتهم واضطروهم إلى الإخلاء إلى السكينة ، وهكذا أخذت تصرفات الاحتجاج تزداد ضده يوماً فيوماً مما أدى إلى انهياره .

الفصل الخامس عشر

الديموقراطيون فى الحكم

تشرين الثانى - ١٨٤٨ : شباط - ١٨٤٩

أظهرت الحوادث استحالة الوقوف أمام التيار الديموقراطى .
الجارف ، ولم يستطع روسى أن يوطد دعائم الهدوء بالقوة ،
فالشعب كان لا يفتأ يطالب بالحرب ، وقد شاع أن البعض كان يعد
عدة مؤامرة لإقامة جمهورية . وفى بولونيه نظم الديمقراطيون
صفوفهم بقيادة جفازى وكان زوكى قد جردهم من السلاح لارتياحه
بعلاقتهم بغاريبالدى ؛ أما رجال الاكليس فكانوا يرجون
المعونة الأجنبية ، وأما المتطرفون فكانوا يناظرون للحصول على
مجلس تأسيسى يقضى إلى انهيار نصف عروش إيطاليا وجميعها .
فاضطر روسى أمام هذه الحوادث أن يجلب قوات إلى روما . وكان
زوكى قد أرسل كتاباً إلى زوكى يقترح عليه فيه بتشتيت شمل وطنى
الرومانى بالقوة أو القضاء على كتيبة غاريبالدى بالرصاص . إن هذا
الكتاب وقع فى أيدي البعض ونشر فأحدث تأثيراً سيئاً ، وبينما
كان روسى فى طريقه إلى المجلس النيابى هدده الجمهور حتى إذا
ما صعد السلم اغتالته يد مجهولة . فوجه الرأى العام التهمة إلى

الديمقراطيين ، إلا أن هؤلاء أَسْتَدْوَعُوا إلى اليسوعيين الذين اعتادوا مثل هذه الاغتيالات .

وتلقت روما هذا الخبر بدون اكتراث . ولم يترك روسى أصدقاءه فلذلك رأى الديموقراطيون والرجعيون في موته فرصة مناسبة لينشط كل فريق كل منهم في العمل لمبادئهم ، بيد أن الديمقراطيين كانوا أسرع إلى الاستفادة من الحادث ذلك أن المجلس النيابي تخلى عملياً عن العمل ، وترك روما في قبضة نادى الشعب وهذا استطاع أن يعيد النظام في الطرقات تماماً . وتلا ذلك قيام مظاهرة عظيمة اشترك فيها الجنود والمدنيون وعلى رأسهم ضباط ومواطنون ممتازون سارت إلى قصر الكردينال في ١٦ كانون الثاني ، وطلب المتظاهرون إلى البابا الموافقة على المنهج الديموقراطى . وكان البابا كلف قبل ذلك (جلينى) وهو من رؤساء الديموقراطيين تأليف الوزارة إلا أن الجمهور أصر على أن يتعهد البابا قبل كل شئ ، بالعمل الإيجابى حسب المنهج الديموقراطى ، ولكن البابا رفض الإذعان ، وقد حاول جلينى عبثاً أن يقنعه . ولما فشل في ذلك استعرض الجمهور أسلحته النارية ليحمل البابا على القبول ، ولكن الحرس السويسرى الساخط على هذه التهديدات أطلق بعض الطلقات فكانت دليل التصادم . وكان الجند الأهل والحرس المدنى بجانب الشعب ، فوجهوا نيرانهم نحو القصر وقتلوا أسقفاً وظل البابا مصراً على عناده ووعد بأن يترك أمر المنهج الشعبى

إلى قرار المجلس ، وكلف سترييني وهو أكثر رؤساء الديموقراطيين تصلباً وأقلهم خبرة في شؤون الدولة تأليف الوزارة ، فاعترف المعتدلون بعجزهم وانتهزوا الفرصة للتخلص من المسؤولية في مثل هذا الظرف العصيب . وكان تركهم المجلس سبباً في حادث كان من الخطورة بمكان ، إذ أصبح البابا جزوعاً يود الإفلات من مدينة تسود فيها الثورة ، وفي ليلة ٢٤ تشرين الثاني هرب من روما متنكراً والتجأ إلى مملكة نابولي حيث خصصت قلعة (جايتيه) الواقعة على الحدود مقراً لبلاطه .

وشعرت مدينة روما بأن اضطراب البابا إلى الحرب يمس سمعتها وضاعف منفاه عطف الناس عليه وخفف من الغلواء هذه فما كان عليه إلا أن ينتظر قليلاً حتى تفتح له روما أبوابها . إلا أنه لسوء حظه وحظ البابوية أسلم نفسه إلى حاشية سوء وحاول المعتدلون والحكومة الفرنسية عبثاً دعوته إلى بولونية أو إلى مارسيلية ، وآثر كما يبدو أن يظل أسيراً لدى فرديناند وألعوية بيده ، وقد وقع تحت نفوذ الكردينال أنطونلي المتزايد الضار . وقد اندفع البابا في سياسته الرجعية العمياء من دون هوادة ، ومما شجعه على موقفه هذا وعوده بالمساعدة التي قطعها جماعات عديدة في فرنسه وبلجيكة وإيرلنده وسويسره حتى أصبحت قضية البابا فجأة من القضايا الأوروبية الخطيرة الشأن . أما أسبانيه فكانت وجهة نظرها تتلخص في أن البابا أمير روهي فيجب أن يكون

تحت حماية جميع الأمم الكاثوليكية بطبيعة الحال ، وقد اقترحت عقد مؤتمر دولي للبحث في القضية البابوية ، ورضيت نابولي والنمسه بهذا الاقتراح . وكانت الأخيرة تأمل أن تجعل من البابا على الأقل حليفاً سلبياً ضد ييمونته ، وأدرك جيورتي خطورة الأمر فارتأى رأياً جديداً لبقاً إذ أعلن أن ييمونته لا تؤيد أى مشروع يرمى إلى أن تبت الحكومة الأجنبية في الشؤون الزمنية لدولة إيطاليا وأنها هي بصفتها دولة إيطاليا من حقها أن تتدخل ، وقد سعى جيورتي لإصلاح البين بين البابا وأهل روما وضمه إلى الحلف الإيطالي بتقديم ملجأ له في مدينة (نيس) والتدخل بالقوة لإعادته على رأس دويلاته .

ولقي جيورتي تعصيذا من الحكومة الفرنسية في مقاومة الفكرة النمساوية الإسبانية . ولم يكن في مقدور رجال الدولة الفرنسية الثورية إلا أن يشجعوا أحرار روما ، وحينما أراد البابا أن يفصل عن الأحرار طلب إلى (كفيلاك) ، وزير الخارجية الفرنسية ، أن يحميه ضد النمساويين في الخارج وضد الديمقراطية في الداخل رفضت الحكومة الفرنسية أن تتدخل بينه وبين شعبه ، وأخيراً لما تحلى البابا عن الأحرار وأخذ يتعلق للدول الرجعية لم يسع فرنسه أن تستمر على جعل نفسها حامية له ومداقمة عنه ضد النمسه ، وقد رفض (كفيلاك) ، ولويس نابليون التدخل مادام شخص البابا في أمان ، وكانت مهمتهما لدى بيوس بدون

نتيجة ، ولا سيما لأن سياسته كانت تميل إلى قبول حماية النمسه وأسبانيا والتخلص من قيود الحكم الدستوري ، وفي شهر — كانون الأول كتب إلى (ابنه الأعز) أى إلى امبراطور النمسه طالباً منه المساعدة .

وقد زادت قضية البابا في الطين بلة وأظهرت تفاهة قيمة ضم الدول بعضها إلى البعض الآخر ، وظلت القضية في نظر المعتدلين والديموقراطيين عبارة عن العمل لجمع القوى القومية لأجل تجديد الكفاح في سبيل الاستقلال . ولما كان باريتو في الحكم كان همه أن يجعل ييمونته غير مقيدة بأى تعهد تجاه الدول الأخرى ، ولذلك فإنه رفض كل محاولة في هذا الشأن ، ولما تولى كسالتى الحكم كان قد أرسل روسمىنى بتأثير من جيورجى لفتح باب المفاوضات مع روما من جديد ، وعهد إليه أن يعرض على البابا امتيازات واسعة لم تعدها الكنيسة في ييمونته مقابل انضمامه إلى الحلف ، وكان البابا قد مضى فوعد جيورجى أن يتولى شارل البرت على إيطاليه الشمالية إذا انتصر وكان لا يزال حينذاك إيطالياً مخلصاً يرغب في أن تطرد النمسه شريطة أن لا يتهم هو بإعلان الحرب على دولة كاثوليكية ، وكانت روما وفلورنسه مستعدين للتوقيع على مشروع لا يتضمن إعداد جيش اتحدى فحسب بل اتفاقاً جبركياً وتشريعاً مشتركاً أيضاً . ولكن حينما تولى بنيتلى الحكم عادت ييمونته إلى عزلتها السابقة ، ولو انعقد الحلف لأدت

الحرب القومية التي نشبت في الربيع الذي أعقبها إلى نتيجة أخرى ، ولما كانت جمهورية في روما ولا كان ارنجاء في فلورنسه حتى ولا احتلت روما من قبل الأفرنسيين ، ولكان الحكم الدستوري قد استقر في طوسكانه ، ودويلات الكنيسة ، وربما في نابولي أيضاً ولكان لقاء ذلك مجلس الاتحاد ساحة تنافس على الأرجحية بين نابولي وبيمونتة ولجأ كل منهما في سبيل ذلك إلى مظاهرة الاتحاديين ولأصبح الكفاح في سبيل جعل السلطة الزمنية رمزاً . ولما أدرك بعض الديمقراطيين وعلى رأسهم ميانتي وجيورتي عاقبة تشتت القوى أخذوا يسمعون إلى اتفاق بجمع القوى للحرب . وكان المؤتمر الاتحادي الذي توقعوا لعقده في تورينو في ١٠ تشرين الأول محروماً من الصبغة الجريئة ليجتمع الراديكاليين أو لتنشيط سير الحكومات . أما الديمقراطيون الطوسكانيون الذين كانوا في الحكم حينئذ فقد رجعوا إلى مشروع مونتانيّ القائل بقيام مجلس تأسيسى إيطالى ينعقد في روما وينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام ، وتكون مهمته الوحيدة الاستعداد للحرب في سبيل طرد النمساويين حتى إذا ما تم ذلك يكون إلى البت في مستقبل البلاد السياسى وتختار الأمة الملكية أو الجمهورية والوحدة أو الاتحاد ، وقد نسي مونتانيّ أن الديمقراطيين كانوا حينئذ ضعفاء جداً وفاقدى التنظيم ، حتى أنهم لا يستطيعون أن يملوا لإرادتهم على الحكومات ما عدا طوسكانه وروما ، فضلاً عن أن الديمقراطية في بيمونتة لم تكن تهتم بالوحدة كثيراً ، ويظهر أن

(١٤ م)

مونتانيّ كان يميل إلى قيام حكومة اتحادية قوية تمنح كل دولة في الاتحاد حكماً ذاتياً بأوسع حدوده ، ومع ذلك فلم يكن ما يحول دون أن يكون المجلس جمهورياً أو قائلاً بالوحدة مما حدا بفرديناند وشارل البرت إلى الاعتقاد بأن الموافقة على الاقتراح المذكور معناه انهيار عرشهما .

ولما بدأ مونتانيّ في مذاكراته للعمل المشترك أخذت صعوبات الاقتراح تظهر بجلاء ، وكان جازماً أن يتفاوض مع (جرازى) ، لاجتذاب بيمونته ونابولى إلى المشروع وإغرائهما بتقسيم دويلات الكنيسة إلى ثلاثة أقسام ، بيد أن بيمونته رفضت الموافقة على أى تنظيم خارجى أو داخلى يقيد حرية عملها فى موضوع الملكية فى شمال إيطاليا ، والواقع أنها كانت تفضل أن لا تشترك الحكومات الأخرى فى الكفاح إلا قليلاً حتى تحتكر هى ثمرات الانتصار . فلذلك كان جواب بنيليّ لمونتانيّ : « يجب علينا الآن أن نقصر اهتمامنا على موضوع الحرب ، لا المجالس التأسيسية » ، ولما رأى جيورجى أن المفاوضات طالت بلا جدوى قدم اقتراحاً جديداً يتضمن الاتفاق على أسس لا يمكن لطوسكانه أن يقبلها . ولما رأى مونتانيّ تقلب بيمونته أخذ يسمى لقيام مجلس تأسيسى من قبل طوسكانه وروما من دون انتظار الدول الأخرى . وكان يأمل هو وجيرازى إمكان اندماج الدولتين المذكورتين فى دولة قوية تقوم فى المركز بفضل وطنيتهما التى تقل أنانية عن وطنية بيمونته أو نابولى .

وجد مونتاني أهل روما على استعداد للنظر مبدئياً في اقتراحه ،
وبينما كانت العناصر المعتدلة والدموقراطية في حالة ضعف في ييمونته
كان الديموقراطيون في روما مثل زملائهم في طوسكانه هم الفائرون ،
وقد شل هروب البابا حركة الدولة ، وأخذت روما تسير نحو الجمهورية
ولكن روما هذه من دون البابا شيء لا يتصوره العقل . نفروج
الأغنياء وفقدان المراسم الدينية قد جردا المدينة من مظاهرها
وبعثا القلق في نفوس سكانها ، حتى إنه لما وصل غاريبالدى إليها
في شهر كانون الأول لم يلق فيها الحفاوة اللازمة . وكان قسم من
الحرس المدني على استعداد لأن يكون في جانب البابا إذا ارتضى
بقيام حكم دستورى ، وكانت في الحين ذاته فئة قد اعتزمت أن
تعارض أى تفاهم مع البابا ، وكانت صحافة المتطوعين والشرطة والقسم
الأعظم من الحرس المدني بجانب هذه الفئة . وقد أدت الأعمال
الرجعية في (جايتيه) إلى رد فعل نشط دعاية المتطرفين ، وأخذ
الشعب يعتقد بالتدريج فكرة استقلال جديدة ، وأخذ مع ستريني
يفضل أن يرى روما عاصمة إيطالية بدلاً من أن تكون عاصمة
الكتلكة . وأخذ عملاء مونتاني وغاريبالدى يتظاهرون في
الأندية داعين إلى خلع البابا خلعاً نهائياً .

وكان ميماني زعيم الأقلية في المجلس النيابي - ومع أنه كان
يصر على فصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية فإنه لم يكن يوافق
على اقتراح يركن إلى تدمير سلطة البابا . وكان زعيما المعارضة
(ستريني وكارلو بونابارته) وطنيين غير متطرفين . وكانت مقاومة

الموظفين الرهبان السلبية قد شلت السلطة الإجرائية . فأخذت ضرورة تأليف حكومة قوية ، مهما كلف الأمر ، تبدو للعيان يوماً فيوماً . وأخذ أنصار البابا ينتهزون الفرصة لإعلان العصيان ، وبينما كانت النمسة تهدد الشمال . كان أهل روما أنفسهم لا يدرون أيعدون فرنسه من أصدقائهم أم من أعدائهم . ولما رأت الرومان أن شارل البرت لا يشجع حركة الانضمام إلى ييمونته أخذت تطالب بحكومة تهدي البلاد وتحميها من رجال الإكليروس والنمسيين . وقد قرر المؤتمر الذي اشتركت فيه أندية الرومان تأييد فكرة انتخاب مجلس تأسيسي بالاقتراع العام بيت في مصير الدولة . وحمل الديموقراطيون هذا الاقتراح إلى روما فتحزبت جمعية (جوتتا) له . وبينما كان المجلس على استعداد لأن يقترح ضد الاقتراح قررت الحكومة حل المجلس ، وعلى أثر ذلك استقال مميانتي فتألفت وزارة برئاسة الأسقف الديموقراطي موزاريلي وحاول زوكي الذي لم يعد يثق بالحكومة أن يسوق معه حامية بولونية إلى (جايتة) ، فلم يسر معه أكثر من مائة جندي إلى الحدود .

وأظهرت الانتخابات التي جرت في شهر شباط قلة أنصار المعتدلين ، وكاد يصبح المجلس مؤلفاً من طبقة الزراع والصناع من أهل دويلات الكنيسة لولا وجود ما زيني وغاريبا لدى وخمسة آخرين ، وقد اجتمع النواب في ٥ — شباط وتباحثوا فوراً في القضية الدستورية ، وكانوا يترددون في اختيار شكل الحكومة ،

وكانت فئة صغيرة قد فازت في الانتخابات على أساس برنامج جمهورى ، وكانت الوزارة على استعداد دائم لاستدعاء البابا إن رضى بإقضاء انطونلى وضمن قيام الدستور ، وكان مميانتى معارضاً للجمهورية لأسباب دستورية من جهة ، ولأن الجمهورية تقيم عراقيل فى سبيل الاتحاد من جهة أخرى . أما مونتانيّ فاستعمل نفوذه للحيلولة دون أى قرار لا يفوز برضاء الأمة بأجمعها ، ويظهر أن إيطاليه لم تتحمس للجمهورية إلا قليلا . فطوسكانه مترددة وييمونته ملكية بينما كانت فينيسية وصقلية لا تثقان باتفاق روما ؛ أما حركة الارتجاع الملكية فى نابولى فكانت هى الفائزة ، بيد أن المتحمسين كانوا يتوقعون أن يؤدى إعلان الجمهورية من أعلى الكاتبول إلى تحمس الشعب الإيطالى فى جميع أنحاء إيطاليه وينفخ فى الأمة نشاطاً عظيماً ويغلب العروش الأخرى . وبعد أربعة أيام من اجتماع المجلس التأسيسى أعلنت الجمهورية بمائة وعشرين صوتاً من مائة واثنين وأربعين ، ثم أعلن المجلس إلغاء السلطة الزمنية البابوية وعرض على البابا ضمانات للتمتع بامتيازاته الدينية فقط . وقد تأثرت سياسة طوسكانه بالاندفاع فى روما ، وكانت وزارة مونتانيّ وجيرزانيّ تتمتع برضاء عام حتى أن خيرة المعتدلين كانوا على استعداد لمنحها ثقة كبيرة ، وكان منهج الوزارة يتضمن إصلاح الاعتماد المالى وتنظيم الجيش والحرس المدنى وتطهير الإدارة من العناصر الفاسدة والعمل على استنباب الأمن العام . وحاول جيرازى

تأليف الشرطة وإلغاء التسلول وإقصاء التدمرين وغير اللاتفين من التطوعين ، ولكن تنفيذ النهج لقي صعوبات كبيرة حتى أصبح العمل متعذراً ، حاول جيرارى عبثاً تنظيم الأعمال وأخذ المعتدلون المتشددون بضمون المراقيل أمام الحكومة ، أما الديموقراطيون المتطرفون في فلورنسه فأخذوا يحملون على الاقتراع الضيق ، ولما رأى جيرارى كثرة الشعب عليه سعى لتأديب مثبى الفتى ، بيد أنه لم يكن لديه أية قوة واعتبره الديموقراطيون خائناً . وفي ١٠ - شباط اجتمع المجلس وكانت أكثريته من المعتدلين ، ومع أنها أكثرية قليلة إلا أنها كافية . ووعده خطاب العرش بإقامة مجلس لطوسكانه وحدث بعد إحدى عشر يوماً أن أعلن المجلس النيابي في روما نفسه مجلساً تأسيسياً لجميع إيطاليه . فرأى الديموقراطيون القوميون فيه مجلس نواة إيطالي وفرصة سانحة لجمع طوسكانه وروما في دولة أخرى واحدة ، وكانوا يطمحون أن النواب الرومانيين يحملونهم بكسبون أكثرية ديموقراطية لا يستطيعون أن يناوئوها في بلادهم . فطالبوا بأن ترسل طوسكانه ممثلين عنها إلى روما ، وكان جيرازى قد ضمن مخالفة الأمير للاقتراح بواسطة أخى السفير الإنجليزي ، واعتبط المعتدلون لهذه الفكرة وأذعن مجلس الأعيان للعكس . وكان الأمير يتردد في الاشتراك في قرار من نتائج أن يحرم البابا من سلطته الزمنية ، ولذلك فإنه كى يتخلص من ضغط رأى العام الافلورنسى عليه وليكسب الوقت

الكافي للاطلاع على أخبار البابا أجل التوقيع على القانون . وفي
٣ — شباط ترك فلورنسه بحجة تأفهة وذهب إلى سبيته ، ولما
الحقه مونتاني لحمله على العودة أبدى ارتياحه نحو الوزارة ونيته
في العودة ، ولكن في اليوم الذي وصل مونتاني إلى سبيته استلم
لأمير كتاباً من البابا يلح عليه أن يترك البلاد . وكان راد يتسكى
شرط عليه أن يترك البلاد ليمادر إلى نجدته حالما ينتهى من أمر
بيمونتته . فهرب إلى الميناء الصغير (سانتو ستفانو) الواقع على
حدود دولته الجنوبية وأعلن للطوسكانيين بأنه فر لكيلا يوقع على
قانون يجبر عليه الحرمان الدينى . ولما شاع الخبر في فلورنسه
تظاهرت الجماهير داعية إلى خلع الأمير ، وطلبت إلى المجلس بأن
يقرر تأليف حكومة مؤقتة وبالفعل فإن المجلس بزعامة كابوني
وريكاسولى قرر بالإجماع اناطة مهمة تأليف الحكومة بجيرازى
مونتاني ومازيني .

وقد أيد الديموقراطيون هذا القرار لأنه خطوة نحو الجمهورية ،
ورأى فيه المعتدلون الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون الجمهورية ، وقد
أبرق جيرازى إلى ليفورنه نبأ خلع لثوبولد ، وأرسلت الأوامر
إلى الأيالات لتجنيد المتطوعين والتعاون مع الأندية ، ولما وصل
مازيني إلى ليفورنه استطاع بصعوبة أن يقنع المدينة بأن تكف عن
عزمها على إعلان الجمهورية ، ولكن وجود الأمير في سانتو ستفانو
قد شجع المخلصين له وجميع عناصر الشعب الذين استفادوا من اسمه

فأحرق عمال السكة ، الذين سبق فأخرجوا من العمل ، محطة أمبولي وسعى القرويون بالقرب من فلورنسه إلى اقتحام المدينة فقبولوا بالقوة ويعود الفضل إلى جيرازى فى انقاذ طوسكانه من الحرب الأهلية . وأعد مازينى فى ١٨ — شباط اجتماعاً آخر وتظاهر الجمهور حينئذاك لتأييد الجمهورية والوحدة مع روما . وقد قبل جيرازى بعد جدال عنيف مع مازينى القول باسم الحكومة المؤقتة بالجمهورية . وفى اليوم التالى أصدرت الحكومة المؤقتة بياناً أشارت فيه إلى الجمهورية التى عادت إلى دارها بعد (٣١٨ سنة) . أما الأمير وقد أصبح يروح تحت عبء الخيانة فظل متردداً ولا يعلم فيما إذا كان ينبغى له أن يرمى بنفسه إلى أحضان بيمونته لتساعده أم أنه يؤجل سير القضية القومية فيرجع نادماً إلى حضيرة هبسبورج ، وقد احتج أولاً على القرار زاعماً بأنه لم يفكر قط فى ترك الدولة ، ثم قبل تكاليف جيورتنى بالمساعدة وتداول معه فى خطة تؤدى إلى دخول القوات البيمونثية . ولما ألح عليه البابا وفرديناند بأن يدع بيمونته وشأنها وأن يلجأ إلى نابولى أبحر إلى جايتة ، ولما فشلت حركة لوجيه لم يلق أى مساعدة من الأهلىن وانفض عنه رجاله وقبل أن يصل جيرازى ببعض التطوعىن والجند النظامى هرب الأمير إلى بيمونته . وبذلك قبلت طوسكانه بأجمعها الحكومة سواء أكان ذلك طوعاً أو كرهاً .

الفصل السادس عشر

نوفاره

كانون الثاني — ١٨٤٨ : أزار — ١٨٤٩

ووقفت ييمونته من الحركة الجمهورية في إيطاليه الوسطى موقف الخصم ، لاحظ الأحرار فيها أن الطوسكانيين والرومانيين ضحوا بالقضية القومية الكبرى على مذبح نزعاتهم السياسية ، وقد أقام جيمورتي في تورينو للاشتغال بالسياسة ، وكان يرى أن إيطاليه في الظروف التي كانت تجابهها تحتاج إلى الضبط أكثر من حاجتها إلى الحركة ، وإن الملكية كانت في أبان سطوتها في ييمونته ، فكل حركة جمهورية إنما تسبب انقسام البلاد تجاه العدو ، وقد برزت لياقته في كل حادث مما دل على أنه كان سياسي عصره الأوحده في دولة ييمونته ، وكانت أراؤه السياسية قد طرأ عليها تعديل منذ ألف كتابه بريماتو ، وقد اعتقد بعد صدور رسالة البابا العامة أن البعث القومي لن يأتي أبداً عن طريق البابوية ، وأن ييمونته هي المنقذ الوحيد ، وأدرك أن شعور الكراهية الذي يسود إيطاليه الوسطى للالبرتينين من شأنه أن يجعل الاتحاد لا الوحدة هي الخطوة الممكنة في تلك الظروف . وإذا كانت الفكرة

القومية تقول بمنع الأجنبي من التدخل في شؤون سلطة البابوية الزمنية أو في تقرير مصير إيطاليا ؛ فإن الفكرة ذاتها تبيح لكل دولة إيطالية التدخل في شؤون الدولة الإيطالية المجاورة ، فذلك يقضى الواجب القومى على بيمونته بأن تستخدم نفوذها فى المتوسط بين الدول الإيطالية المتخاصمة ، وإذا اقتضى الأمر فعلها أن تتدخل بالسلاح .

وكانت معركة الانتخابات فى كانون الثانى حامية الوطيس ، وقد انتخبت اياه صافويه فوجاً ذا بأس من المحافظين المتشردين ، وخسر المعتدلون المعركة فى كل الأنحاء ، وكان القسم الأكبر من الأكثرية الديمقراطية من الرجال الجدد ، أى من صغار المحامين فى الأيالات ومن المباردين اللاجئين ومن الرهبان المتطرفين الذين يدعون إلى الاستمرار على الحرب وغيرهم ممن كانوا على استعداد لتأييد جيورتنى ، وسرعان ما فترت الغزائم حينما صرح الوزير الأول فجأة أنه لن يشترك فى المجلس التأسيسى فى روما ، وقلق أولو البصيرة من الديمقراطيين من ذلك رغم امتعاضهم من سياسة إيطاليا الوسطى ، وأخذت الثغرة بين بيمونته وبين إيطاليا الوسطى فى الاتساع ، وكان موقف جيورتنى موقف الانتهازى المحدود الفكر إذ كان يرتأى بأن الوحدة لا يمكن أن تتم الآن وأن الواجب يقضى بالانصراف إلى الإصلاحات العظيمة الشأن وإلى تدعيم وتقوية الحكومة الدستورية وفكرة الاتحاد ؛ وبانجلاء موقفه

هذا اتجاه المجلس التأسيسي انقطعت كل صلة بينه وبين الديمقراطية ولا سيما بعد أن صرح بأنه لم يشترك في المجلس التأسيسي لأن الاشتراك فيه يسيء إلى الأمراء والبابا ، وبموقفه هذا أى بقطع صلاته بجمهورية روما قضى على كل أمل في الاتفاق مع إيطاليا الوسطى .

لقد ظن جيورجى أن إعادة الدوق الكبير إلى الحكم بالسلاح البيمونتي قد يؤدي إلى تسخير جميع قوات طوسكانه في سبيل الحرب ، لأن حدودها تصلح لأن تكون قاعدة ذات فائدة عظيمة للحركة ضد الجانب النمساوى ، وكان في سبيل هذا الغرض على استعداد لأن يسحق برجله كرامة الطوسكانيين ومن دون أن يخبر الملك ، ولعله من دون أن يخبر زملاءه أيضاً كتب إلى الدوق الكبير يعرض عليه إعادته إلى العرش بقوة السلاح ، ولما لم يوفق إلى ذلك اضطر إلى الاستقالة في ٢١ كانون الثاني .

ويظهر أن النمساويين كانوا عازمين على أن يكتبوا الشعور القومى في لمبارديه وذلك على أثر الانتصارات في شهر آب ، وقد اشتد استياء الأهلىن وتوترهم أكثر من قبل والتجأ آلاف من اللومبارديين إلى بيمونته وسويسره . أما الذين بقوا في البلاد فقد خاضوا غمار معركة صامتة ضد السلطة ، ذلك أن مجالس الأيالات رفضت إيفاد نواب عنها للمجلس الإمبراطورى في فينا . وحيث إن الحاميات العسكرية القومية قد استطاعت أن تحافظ على الأمن

ولو ظاهراً فإن راديتسكى عزل الحكام المدنيين وأجل الحكم الدستورى الموعود ، وفرضت ضرائب باهظة لتسديد نفقات جيش الاحتلال وأصبح الشخص الذى يحمل السلاح فى ميلانو عرضة لعقاب الموت . وقد قتل بعض الناس رمياً بالرصاص أو جلداً لهذا السبب . فلم يشاهد فى هذه الظروف فى أزقة ميلانو إلا جنوداً ومتسولين . وكانت خطة راديتسكى ترمى إلى معاينة الأغنياء واستجلاب الدهماء لاستخدامهم فى النهب ، ولكى ينكل بالطبقة النبيلة فى ميلانو ليفيظها فإنه فرض غرامة نقدية ، عشرين مليوناً من الليرات على مائتى شخص من هذه الطبقة ، ولما لم تدفع هذه الغرامة صادر كثيراً من أملاكهم وأموالهم . ولم تؤد هذه الأعمال إلا إلى إثارة حقد جميع الطبقات وأصبح الشعور السائد فى جميع أنحاء لمبارديه ضرورة الثورة فى أول فرصة يمنحها المبارديون إخوانهم الطليان . وكانت الرغبة فى الخلاص من الحكم النمساوى تمجيش فى صدور جميع الإيطاليين من أحرار ودموقراطيين إذ كانوا جميعهم يحقدون على استبداد راديتسكى . بيد أنه لم يبق أثر للثقة ووحدة الشعور اللتين كانتا تسودان سنة ١٨٤٨ ، فذكر الانكسار الحديث والشعور أخيراً بشوكة النمساويين أبعدنا الرجل المتردد عن الميدان وجعلنا الرجل المتيقظ يتربص وينتظر ، وقد فقد الديموقراطيون كثيراً من حماسهم ونفوذهم لضعف عزيمتهم وكفائتهم ، وحالت الاختلافات دون توحيد مساعيهم مع المعتدلين

ومع أن أكرثية الأمة الساحقة كانت قومية النزعة من صميمها كما كانت في السنة الماضية إلا أنها لم تعد تتحمس لقضية الاستقلال حماسها الأولى ، فالحسد بين الدول المختلفة والخاوف من التوسع البيمونتي وبقمة الكنيسة كانت عوامل تحول دون تكاتف القوى القومية ، حتى أن المفاوضات المؤيدة في سبيل عقد الحلف لم تنجح كما أن المجلس التأسيسي لم يوفق إلى توحيد طوسكانه وروما . أما نابولي فبقيت منعزلة وكانت صقلية تهتم بحكمها الذاتي أكثر من اهتمامها بالوحدة الإيطالية ، وانصرفت فنيسية إلى مشاكلها الخاصة بها لا تثق ببيمونته ولا بالمجلس التأسيسي .

وأصبحت بيمونته لا تستطيع أن تعتمد على أي مساعدة إيطالية في الحرب المقبلة كما أنه لا أمل لها في مساعدة الأجنبي . ورغب لويس نابليون في أن يحارب في جانب بيمونته إلا أنه لم يجد وزيراً واحداً يقول برأيه ، كما أن باستيد وبالمرستون قد أساءها رفض بيمونته التفاهم مع فينا ، فعليه يتضح أن بيمونته سوف تضطر لأن تقف وحدها في وجه الامبراطورية النمساوية العظيمة . ومع ذلك فإن بيمونته حين أيقنت أن الاستمرار على الحرب أمر لا بد منه أظهرت شجاعة فائقة كانت تتصف بها . ولما استقال جيورتي وتولى الجنرال (جيودو) رئاسة الوزارة بقي جميع وزراء جيورتي في الوزارة الجديدة . وكانت جنوة تلهب حماسه للحرب ، وكانت مدينة نيس إيطالية الشعور شأنها شأن بيمونته . ولم يكن

في المجلس النيابي من لا يتحسس للمحس القومي الإيطالي سوى نواب صافويه حتى أن بيمونته نفسها لم تعد تسودها تلك الحماسة العامة التي أقامت البلاد وأقعدتها قبل سنة ، فالرهبان الذين ساروا على خطة البابا في ترك القضية أخذوا يستعملون نفوذهم في التأثير في القرويين الفقراء في بعض المدن . وازدادت قوة الجيش حتى بلغت ثمانين ألفاً ، إلا أن بعض الكتاب كانت مؤلفة من المستجدين أو من المتزوجين الذين كانوا ينتظرون حين العودة إلى بيوتهم بفارغ الصبر . وكان الملك قد ترك قيادة الجيش ، ولما فشلت المساعي للحصول على قائد افرنسي اختير الجنرال البولوني جرزانوفسكي قائداً للجيش ، وكان قد برز في الحروب واشتهر بصدافته للحرية .

انتهت الهدنة في ١٢ أيار ولكن الجيش البيمونتي كان منتشراً على طول أنهر تسينا وأوليغيو وبو ، واجتازت فرقة مارمورا مضيق سيزا لإشغال الثورة في لمبارديه ، وكان القسم الأكبر من الجيش بين (نوفاره ومورتاره) وبينما كان البيمونتون قد شتتوا قواتهم كما رأينا كان راديتسكي قد استعد لإزال الضربة القاضية ، فبعد أن ترك حامية ضعيفة في ميلانو جمع خمسة وسبعين ألفاً في بافيه وشرع مساء يوم ٢٠ آذار باجتياز نهر تسينا . وبعد معارك استمرت يومين اضطر الجيش البيمونتي إلى الانسحاب ، فقرر جرزانوفسكي الاستعداد للمعركة أمام نوفاره بقوة لا تتجاوز الخمسين

ألفاً ، وعلى الرغم من أن الفرصة كانت سانحة للوقوف أمام الجيش النمساوي الذي كان يطارد الجيش البيمونتي ببطء وحذر ؛ فإن المعركة التي نشبت صباح يوم ٢٣ آذار واستمرت إلى المساء قد خسرها الجيش البيمونتي بسبب جهل القيادة وسوء التدبير في التموين ، وقد اشترك الملك في المعركة مستهدفاً للموت ، ورغم الانكسار أراد الاستمرار على القتال إلا أن قواده رفضوا ذلك فاضطر إلى طلب الهدنة ، ولما اشترط راديتسكي شروطاً ثقيلة تابأها نفسه تخلى عن الملك واجتاز خطوط النمساويين متنكراً في طريقه إلى منفاه القصي .

الفصل السابع عشر

شباط — ١٨٤٨ : أيار — ١٨٤٩

ظلت نابولي في السنة المنصرمة منعزلة عن الحركة الوطنية ، وكان كرياتى الذى تولى انوزارة بعد الارتجاع رجلا ذا هدف ومطمح إلا أنه كان ضعيف الإرادة جداً ، فلذلك ظل بوزيلى العضو النافذ فى الوزارة ، وأخذ كرياتى يدير دفة الدولة بين الكاماريل « الجماعات الذين ساعدوا الملك على حركة الارتجاع » وبين البرلمان ، هم الوحيد الاحتفاظ بمنصبه الذى رفعه من فقر مدقع إلى ثروة طائلة وأصبح العوبة بيد الملك أيضاً . ومع أن البرلمان قد حل قبل أن يجتمع ؛ فقد صدرت الأوامر بانتخاب مجلس جديد وظلت الصحافة حرة . لكن اليسوعيين عادوا إلى المسرح كما ظهرت الشرطة القديمة فى الميدان ، ومنعت الاجتماعات العامة . وكانت البلاد قد بوغتت فى ١٥ — ايار ، وكان أغلب الناس فى اضطراب شديد لا يستطيع معه العمل ، وأنه حنق للحوادث التى جرت فى نابولي ولاستدعاء (ييه) إلا أنه كان لا يزال يميل للاعتقاد بقسم الملك ، وأن شارل البرت سوف ينتصر لا محالة ، أما البلاط فلم يجزأ على إقامة الدستور .

وكانت الأيالات الجنوبية مستقلة عن نابولي بصورة عملية ، وكانت الثورة تتمخض فيها وفي نواحي جبال أبروزا ، إلا أن فقدان الأسلحة وقلة الثقة المتقابلة حالاً دون قيام الأيالات بعمل مشترك ، وتركت كالابرية وحدها ترفع راية العصيان ، والتحق آلاف من الناس بجيش الثورة ، وأنضم إليها موظفون من جميع المناصب ودلت قلة الجرائم وإسراع الناس إلى تأدية الضرائب على أن البلاد كانت مجمعة على الانقياد للحكومة الثائرة ، وكانت تحتاج إلى قائد مثل غريبا لدى يقضى على عدم الثقة والحسد اللذين برزا للعيان وبسببها رفضت القوة المرسلة من صقلية البالغة ٦٠٠ شخصاً الحركة مع الكالابريين ، وقد انتهز الملك الفرصة وساق ثمانية آلاف من الجند إلى أيلة كالابرية ، واقتربوا فيها من المظالم ما أفرغ الأهليين وأخذ حركتهم . ولما حل الخريف ورغب القرويون في الذهاب إلى أهلهم ولأجل الحصاد اجتاحت قائد الجند تلك الأيالة المسكينة وشجع القرويين على نهب أموال الأحرار وساق الرؤساء الأسرى إلى برج جايتيه .

وأظهرت الانتخابات التي جرت تمسك الناخبين بالأحرار ، ففاز الأعضاء القدماء في جميع الأنحاء ، وتجلّى في نابولي شعور البلد الخائق ، وكان الامتعاظ سائداً بين الوطنيين حتى خلت المراسح والقاهى وقوطع الضباط مقاطعة شديدة ، وأخذت مؤامرة جريئة تحاك ، وأخذ البعض يملحون بتوحيد الجنوب بالشمال بزعامة (١٥٢)

آل صافويه ، وكانوا قد نادوا بشارل البرت ملكا لإيطاليه ،
ولكن البرلمان أخذ يظهر ضعفه السابق ، وبدأ الأعيان يؤازرون
الحكومة بشدة وكان كثير من النواب يخشون الاقتراع ضدها ،
ورغبت الأكثرية في التفاهم مع الملك ومؤازرة الحكومة إذ
قررت سوق الجنود إلى الحرب ، وقد تجاهلت ثورة كالابريه
وأغمضت عينها عن طمع الملك بالاستيلاء على صقلية من جديد ،
ولكن التفاهم منى بالفشل ، وأخذ يوزيلي يظهر عدم ارتياحه للحال
بالتخلف عن حضور جلسات المجلس النيابي ، أما الملك فصم أذانه
عن طلبات المجلس ، ومع ذلك فإن الحكومة لم تجرأ على حل المجلس
إلا أنها لم تكن تجرى انتخابات للمقاعد الشاغرة . ولما حلت
مصيبة كوستيزه وجدت الحكومة في نفسها الجرأة الكافية للهجوم
على صقلية وأجلت اجتماع البرلمان ، ولأجل القضاء على كل مقاومة
من جانب الطبقة الوسطى رتب رجال الشرطة مظاهرة في سانتا
لوسيا ضد المجلس النيابي ، ولما اصطدم العمال الحائقون بالدهاء شتوا
شملهم ، وكان هذا الحادث قد جهز الملك بالحجة اللازمة ليقضى
على الأحرار . وحين أخذ انتصار النمساوين يبشر بنجاح الحركة
الرجعية رفع رجال الكاماريللا القناع عن وجوههم ، وكان يوزيلي
مؤيداً لهم ، وخفض عدد الحرس الوطني في العاصمة ، حتى أصبح
عنصرأ مهملأ ، واضطهد الأثماء والولاءة من الأحرار وفصل ذووا
المناصب من مناصبهم ، وطهر القضاء من العناصر الحرة حتى صار

أداة بيد الشرطة ، وتزايد تحكم الجيش حتى أصبحت حياة الأهلىن تحت رحمة الضباط ، وجلد بعض الناس وقتل آخرون من قبل الجنء ، وبعد أن قضى فردينانء على الثورة اعتبر أول ملك أعاء النظام فى أوربا ، وقءا تءذب رء ءابئة مسكناء اللامراء الءىن اعتبرهم فى عءاء المسئولىن عن نءءاء الأءراء فى حركتهم الأخيرة .

ومع ذلك فإنه لم يقدم على وقف الحياة الدستورية خشية ثورة البلاء الءى مهما كان مطيماً فقد يعود ويصءح خطراً ، ولذلك ظلت الحياة الدستورية قائمة ولكن بصورة اسمية ، وقء قطعت العلاقات السىاسية مع تورىنو وفلورنسة ، ولما شرعت الحركات الحربية من ءءىء فى الشمال أقءم الملك على العمل ، فاستءعى الوزىر النمىوى الفوض الءى كان عاءر البلاد وشرع بالحركات من ءءىء فى صقلية وأعلن حل البرلمان ، ولما وصلت أءبار ، نوقاره انطلقت أىءى يوزىلى والكامارىلا ، واعتقل معظم النواب وهرب بعضهم وقىءت الصحافة وأغلقت المدارس وعوضء اليسوعىون ، وبىنا استعبءت نابولى لأنها واجهت الأحداث بمءور ونقص فى شءاعتها فإن صقلية استقبلت مءنهم باوطنية شءىءة وبطولة عنيفة وشءاعة فائقة ، فلم تلق السلاح إلا بعد أن أضاعت كل أمل ، على أنها لم تءل من الأخطاء الءى ارتكبتها الدوىلات الأءرى . فأسلوب الحكم وعدم نسيان الحزازات الحزبية وخيانة البعض من الطبقة المتغلبة مما أءى إلى فشل القضية فى الدوىلات الأءرى . وكانت

الظواهر تدل على أن نابولي لن تستطيع أن تسترد صقليه ، وكانت انجلترا وفرنسه وروسية يتسابق كل واحدة منها لتجعلها تحت حمايتها ، وكانت صقليه الدولة الإيطالية الوحيدة التي تمتاز بماض دستوري يمكنها أن تنفع به ، وقد اتفقت كلمة الجميع فيها من الأشراف وعظماء الأكليروس واليسوعيين إلى القضاة والتجار والقرويين على الاحتفاظ باستقلال الجزيرة .

وكان رجال الأحزاب في نابولي من الملكيين والمعتدلين والديموقراطيين لا يأبهون كثيراً بموقف صقلية الغامض ، لذلك كان من السهل على الحكومة التي كان أعضاؤها لا يعطفون على الحركة القومية — أن تسوغ موقفها من صقليه ورفض مطالبيها . وكانت صقليه قد اشترطت للتفاهم إقامة برلمان منفرد للنظر في شؤون صقليه الخاصة ورفض دستور سنة ١٨١٢ رفضاً باتاً ، ولما رفضت نابولي تلك المطالب أعلن برلمان باليرمو سقوط آل بوربون عن عرش صقليه وانتخب (روجير وستمو) ، رئيساً مؤقتاً للدولة ريثما ينتخب ملك للجزيرة . وكان هذا الرئيس من حيث ماضيه المجيد وحبه للحرية وتضحيته في سبيلها حتى بآرائه الخاصة وصفته بعيداً عن كل مغز ومطعن ، وفي هذا الرئيس تمثلت وحدة البلاد ، ولكن وراء هذا الإجماع على قضية الاستقلال لم يكن بد من تنوع الآراء وتكوين فرق ، فهناك الوزارة وأكثريه البرلمان المؤلفة من المحامين ورجال الأدب

وبعض الأشراف يقولون بملكية دستورية تستند إلى حرية واسعة لا تبلغ الديمقراطية التامة ، ولم يكن رجال هذا الفريق يهتمون بالسياسة الإيطالية الاهتمام الكافي ، وإنما كانوا يعتمدون على عطف انكلترة وفرنسه وحمايتهما إياهم من عدوان آل بوربون ، وهناك في البرلمان أقلية ولكنها تنزع إلى الجمهورية ، وتعنى كثيراً بالقضية الإيطالية ، وشرعت من كل قلبها في مساعدة أحرار نابولي وجيش الشمال ، وترغب كل الرغبة في تأليف جيش قوى يكفل للجزيرة استقلالها بلا مساعدة انجليزية أو فرنسية ، على أن الاهتمام بتجنيد الجيش كان ضئيلاً ، وتكاد الشرطة تكون مفقودة ، فكان أمن المدينة تحت رحمة عصابات من المحكومين الذين أخرجتهم قوات نابولي وموظفيها قبل رحيلهم من الجزيرة ، فضلاً عن أن عصابة سكوادره المجرمة التي استخدمتها باليرمو عملاً بتقاليدها في أعمال الثورة ، وكانت هذه تنتظر حصتها من الغنيمة ، وكانت العصابات المنظمة تحيط بمدينة باليرمو ورتبت الاضطرابات في كتانيه ومرساله .

ورغم هذه الأحوال فإن الاختلافات قد تلاشت أمام قضية انتخابات الملك ، وكان الموقف يتطلب حلاً سريعاً لأن الارتباك الذي ينجم عن عدم وجود الملك يحول دون استتباب الأمن ، أضف إلى ذلك أن انكلترة وفرنسه لم تعترفا بالحكومة الجديدة قبل أن ينتخب الملك ، فلا بد إذن من أن تبت صقليه قبل كل شيء في شؤونها الخاصة ليتسنى لها الانضمام إلى الاتحاد الإيطالي باعتبارها

دولة مستقلة ، وكان الصقليون يلحون بأن يكون لهم برلمان خاص لأن نوابهم في مجلس مشترك يؤلفون أقلية لاشأن لها شأن النواب الإيرلنديين في مجلس العموم البريطاني ، وكانوا لا يفتأون يجهرون بأن خصومتهم لنابولي لا تعنى خصومتهم لإيطاليا لأنهم إنما يريدون أن يروا نابولي شقيقة لهم لا سيدة عليهم ، على أن أحرار القارة الأوربية كانوا يعلمون بأن الوعي القومي لم يتغلغل في نفوس أهل الجزيرة إلا قليلا وأن الحمية التقليدية القومية التي تتجلى في المطالبة تطفئ على كل عاطفة إيطالية عامة ، ولقد كان هناك خطر يهدد القضية الإيطالية في سعى صقلية لأن تكون دولة مستقلة بحماية إنكلترة .

فاختيار الملك إذن كان أحسن واسطة لمعالجة تلك الميول ، ومن المحتمل أن تعترف الدول الإيطالية بدولة صقلية أثر انتخابه ماعدا دولة نابولي ، وكان في الميدان مرشحان خطيران أولهما أمير صقلية الذي كان له اليد الطولى في السياسة الإيطالية ، وكان له اليد الطولى في السياسة الإيطالية ، وكانت فرنسا وجميع الذين يخشون سيطرة ييموتة المتزايدة في جانب هذا الترشيح ، وبينما كان البرلمان منهمكا بمناقشاته وبحوثة الدستورية الطويلة أخذ الشعب يتلهف لرؤية الملك المنتخب المنشود ، وكانت شهرة أمير جنوة الحربية ورغبة الناس في أن يتسلم العرش رجل عسكري ذو عزيمة قد رجحت كفته وعجل في حل القضية بيان رسمي أصدرته الحكومة

البريطانية قالت فيه ؛ إنها تعترف باستقلال الجزيرة حالما تتم الانتخابات ، وقد هدد الحرس الوطنى البرلمان باستعمال القوة إذا طال تأخير القضية ، مما اضطر المجلس النيابى إلى الاستعجال فى وضع مواد الدستور اللازمة فى الليل ، ثم انتخب المجلس بالاجماع أمير جنوه ملكا على صقلية وذلك فى ١ - تموز .

وبلغ فرح الناس وحاسهم حداً نسوا فيه أن يتبينوا فيما إذا كان الأمير يقبل العرش ونسوا خطر استيلاء نابولى على الجزيرة ، وأخذت صقلية تنفس نسيم الحرية والخلاص التام من أمرة بوربون البغيضة ، إلا أنه سرعان ما تكدر الجو لأن الحكومة لم تعد العدة للدفاع عن الجزيرة ، وكانت صعوبة تنظيم الجيش من الصعوبات التى لا قبل للحكومة ضعيفة بتذليلها ، ثم إن أمير جنوه أجل جوابه مما أدى بالوزارة إلى تقديم استقالتها فى شهر آب ، فألف الوزارة (توريارسه) أحد المحافظين الشرفاء ، وكان زملاؤه أكثر دموقراطية من الوزراء السابقين ، وكان من بين وزرائه (لا فارينا وكردونه) وهما من المع رجال صقلية ، ولكن لم تلد تتولى الوزارة شؤون الدولة ثلاثة أسابيع حتى كان هجوم نابولى على الجزيرة ، وتفصيل ذلك أن فرديناند رأى الفرصة سانحة بعد أن قضى على العصيان فى كالابرية ، ووردت أخبار الخدال الجيش البيمونتى ونجاح الحركة الرجعية فجهز حملة قوية فى الخفاء وحين ترك الأسطول نابولى فى ٣١ - آب تجمعت قوة تقدر بعشرة آلاف فى سواحل

كالابريه ، ولم يكن إذ ذاك لدى صقلية إلا ستة آلاف جندى من
المجندين الأحداث ، ومن جمعية سكوادره أو الحرس الوطنى الذى
يعوزة الضبط ، وكانت قلعة مسينا لا تزال بيد حكومة نابولى ،
واستطاع النابليون بمساعدة الأسطول الذى كان يسيطر على البحر
إرسال المواد إلى القلعة ، فأخذت المدافع تمطر المدينة بوابل من
القنابل ، وبعد أن أُنزل القائد جنوده إلى جنوب المدينة أمر بإبتعاد
السفن فى الساحل ليقطع أى أمل لجنوده بالعودة ، وطلب إلى جنده
أن يختاروا بين النصر أو الموت ، على أنه رغم وصول القوات من
نابولى بلا انقطاع واسكات المدافع الصقلية وتشتيت رجال سكوادره
ولجؤهم إلى الجبال ؛ فإن روح الدفاع الجريئة لم تهين حتى أخذ الرهبان
يقاتلون بجانب المدنيين ، والنساء والصبيان يلقون بأنفسهم فى أشد
المعارك ، وأخيراً استطاع المهاجمون أن يستولوا على مدينة مسينا
وانتقموا من أهلها أفضع انتقام ؛ إذ أحرقوا الدور وسطوا على النساء
وقتلوهن فى الكنائس ومثلوا بالصبيان وذبحوا الشيوخ فى فرشهم
ونهبوا المعابد .

ومع ذلك كله لم تنفت هذه الفظائع فى عزم الصقليين ، فأقسموا
بيمين المقاومة حتى النفس الأخير ، ولم تنفخ الجزيرة الصعداء
وتتخلص من الفظائع إلا بعد قبول شروط الهدنة التى وضعها
الأميرالان الافرنسى والإنجليزى ، أما أهل مسينا فرموا بوعود
القائد الاصلاحية عرض الحائض مستهينين بمحاولة فرديناند

للتفاهم وقدموا ضرائبهم إلى حكومة باليرموا ، أما البرلمان فقد قطع عهداً على نفسه بأن لا يتفاهم مع العدو أبداً وأقر قانون التجنيد ، وسمى لاستخدام غاريبالدى والاستفادة منه ، وحمل كردوفه المجلس على إقرار قانون لبيع الأملاك الوطنية والدينية وهو من المشاريع الخطيرة التي لو تم تنفيذها لقلبت طريقة الملك في الجزيرة ظهراً على عقب .

وكان الجيش وسكان العاصمة ، باليرمو ولعل أكثر الناس خارجها يماضدون الوزارة ولسكن القوى الرجعية أخذت تتشجع رويداً رويداً ، وقد جلبت إصلاحات كردوفه المالية خصومة العناصر الرديئة من موظفي الخزينة ووحدت بين كبار الإكليروس وكبار الملاكين ، ولما فشلت المفاوضات في باريس للحصول على قرض اضطر كردوفه إلى أن يفرض على الناس قرضاً إجبارياً ؛ الأمر الذي أغضب الرأسماليين ، أما أمير جنوه فقد رفض التاج بعد أن طال انتظار الناس لجوابه ، وأخذ الأعيان يعرقلون المراسيم الاشتراكية ، أما المجلس النيابي فأضاع وقته بالمناقشات ، وأوشك أن يتألف من الوسط حزب قوى ممن يحقدون على آل بوربون ولكنهم يخشون الحرب وما تتطلبه الحرب من تضحيات ، أما الحرس القومي في العاصمة الذي كان بإمرة الأشراف والمؤلف من سفار التجار فكان يتمتع بسلطة قانونية مستقلة من السلطة الإجرائية وعن مراقبة الجيش مما اضطر كردوفه أولاً والوزراء الآخرين من بعده إلى الاستقالة .

وقد دل فوز الحرس الوطنى على انهيار القضية الصقلية ، فمع أن الوزارة الجديدة أعلنت عزمها على الدفاع عن استقلال الجزيرة ، فإنها كانت مؤلفة خصيصاً من مرشحى العصبة الفائزة ، وظل بالمستون يجهز الصقليين بالسلاح خلسة بمد الهدنة ، وكان على تفاهم مع الحكومة الافرنسية بأن يقوم السلم على أساس منح الجزيرة استقلالاً ذاتياً مطلقاً وتكون تابعة للتاج النابولى اسماً ، وأظهر الملك فرديناند استعداداه لقيام برلمان مستقل وإدارة منفردة ، إلا أنه لم يوافق على تأليف جيش خاص ، وأصر على تجهيز بعض القلاع الصقلية بالحاميات النابولية ، ولكن أهل صقلية أجمعوا على رفض سيادة آل بوربون حتى ولو كانت اسمية ، مما جعل فرديناند يعزم على أن لا يبدى أى تساهل آخر وأن يتولى ضبط الجزيرة ، وبعد أن رفض التكاليف الافرنسية الانجليزية فى منتصف كانون الثانى بصورة باتة نشر اذاراً بمطالبة نهائية ، وفيه منح أهل صقلية دستور سنة ١٨١٢ ، وبرلماناً وإدارة مستقلة وأن يعينوا موظفين مواطنين واحتفظ للعرش بحق حل البرلمان وسوق الجيش من دون موافقة البرلمان . وكان جواب الزعماء إصدار قانون بتجنيد عشرة آلاف جندى ، واتحد الناس وتناسوا شؤونهم الخاصة ومشاكلهم وهمومهم وزالت الجرائم وأعيدت المواد المسروقة إلى أصحابها وارجعت العصابات الأغنياء الذين اعتقلتهم ، وأخذت جماعات كثيرة من أهل باليرمو يهرعون للاشتراك فى مهمة الدفاع

وأجمع الأشراف ونسائهم والرهبان والمحامون والعمال والصناع على العمل ، ولكن المؤسف أن لا يجدى هذا الاقدام وتلك الحماسة نفعا إذ لم يكن لدى الصقليين أكثر من سبعة آلاف جندي نظامي للدفاع حين انتهاء أجل الهدنة في ٢٩ — آذار .

وعلى الرغم من غلطات القائد البولوني ميروسلافسكى الذى تولى قيادة القوات الوطنية فى صقلية ، اصطدم تقدم العدو بمقاومة عنيفة خللت بطولة الدفاع عن كاتانية ، ولقى أهل نابولى صعوبات جمة فى حركاتهم فى الأراضى الجبلية التى تصلح لحرب العصابات ، ولو تمكن أهل صقلية من توحيد قوى المقاومة لاستطاعوا أن يطيلوا أمد الحرب إلى أن تضطر أوروبا إلى التدخل ، وقد خاب الأمل فى ذلك بسبب الاختلافات التى نجحت حول الحرس الوطنى فى العاصمة وفتور الحماسة ، وقد أدى فشل حركات القائد البولوني وورود أخبار انكسار الجيش البيمونتى فى توفارة وخشية استطالة أمد الحرب ، وكثرة النفقات ، إلى خوف الأشراف والطبقة الوسطى ، فقرر البرلمان الموافقة على طلب توسط الأدميرال الأفرنسى الذى وعد بتنفيذ أحكام انذار الملك وسرح البرلمان الجنود وأبعد أنصار الحرب فى باليرمو من ساحة العمل ، واضطر الزعماء إلى ترك الجزيرة ولكن الأسطول النابولى وصل إلى الميناء فدهش الناس إذ أنهم كانوا يظنون بأن القضية تحسم من دون تدخل الأسطول والوقوع تحت رحمة آل بوربون ، فهاجت الجماهير وأخذت تنادى بالانتقام

من الخونة ، وما كان من الحرس الوطنى إلا أن اندفع مع
التيار فاحتل المدينة وأخذ يدافع عنها ضد المهاجمين وأظهر بطولة
خارقة أوقفت المهاجمين يومين ، ولم يكن بالاستطاعة تمديد
المقاومة أكثر من ذلك ، فتسرب اليأس فى القلوب وانقطع
الرجاء فى الفوز واضطر الشعب للخضوع واستسلم فى ١١ — أيار .

الفصل الثامن عشر

الجمهورية المركزية

شباط — تموز — ١٨٤٩

كادت معركة نوفاره أن تفتح أبواب إيطاليا الوسطى في وجه الجيش النمساوي ، وقد ظل العلم المثلث الألوان برغم ذلك يرفرف فوق فلورنسه وروما ، وأدت معارضة فرنسه إلى الحيلولة دون تقدم جيوش راديتسكي نحو تورينو ، وكانت حاجزاً دون استيلاء الجيش المنتصر على الروماني وطوسكانه ، وبذلك ظل ثلث إيطاليا قادراً على أن يدافع عن حريته ، وكان الرؤساء الثلاثة (مونتاني ، وجيرازي ومازيني) في فلورنسه قد قبلوا الحكم الجمهوري إلا أنهم لم يعلنوا الجمهورية بصورة رسمية ، وكان مازيني الرئيس الثالث يعيل إلى عرض القضية بأجمعها على المجلس التأسيسي ، أما جيرازي فأخذ يعيل إلى المعتدلين ويحتج بأن ما صدر عنه من بيانات وأعمال تنم عن نزعة جمهورية إنما اضطر إليها خلافاً لرغبته ، وكان يحمل على الجمهوريين القلدين الذين وصفهم بأنهم « يفرسون أشجار الحرية ولكنهم لا يعرفون حمل السلاح » ، وكتب إلى جيورتي يقول بأن الحكومة لن تعلن الجمهورية إلا بعد أن يقرع عليها ممثلو الشعب

ولكنه في حديثه مع مازيني كان يتظاهر بأنه من أنصار الوحدة مع روما وأنه لولا قلة الجند لأعلن الجمهورية ، وكان يظن أنه يستطيع بالمدارة تمشية الأمور إذ كان يمتد عن حق بأن انسحابه يؤدي إلى الفوضى .

والواقع أن الحركة في سبيل الجمهورية لم تكن مضمونة الظفر، ذلك لأن الحزب الجمهوري كان قليل العدد وكان الجمهور في فلورنسه تحت تأثير دعاية اللاجئين اللباردين الذين يحاولون أن يجعلوا من الحركة صورة لطيفة مصغرة منسوخة عن الثورة الفرنسية ، وأما في الأندية فعدد الجمهوريين الأقحاح كان قليلا ، وقد ازداد الذين يصطادون في الماء العكر وأخذ الرجعيون ينشطون أملا أن الشر يتفاقم ، وكانت الجماهير تسير وراء كل حركة تبدو ثم لا تلبث أن تنظم إلى الناجحة من الحركات ، ففي مثل هذا الجو المضطرب كان يستحيل على الحكومة أن تعمل ما لم تكن قوية قادرة على أن تستغل حماسة الناس وتفودهم نحو أهداف نافعة ، ولكن الرؤساء الثلاثة لم يكسبوا احترام الناس ولا عطفهم ، والواقع أن موقف الحكومة كان محفوفا بالصعوبات ، فالعبدلون لم يبدأوا أى مساعدة لاستتباب الأمن وفاق بالفقراء إعسار مدقع ، وأخذت الجرائم تزداد وامتلات السجون ، ونشب اضطراب في فلورنسه لم يلبث جيرازي أن استطاع بحزمه القضاء عليه والقبض على ناصية

الأمر . وقد تمكنت الحكومة في شهر آذار من بسط نفوذها وحمل الناس على إطاعتها .

وكان قد تقرر في طوسكانه أن تجرى الانتخابات للمجلس التأسيسي الطوسكاني في ٥ - آذار على أن ينتخب في الوقت نفسه الممثلون للمجلس التأسيسي الإيطالي في روما ، وهنا اختلف الناس في أي المجلسين يقرر مصير حكومة طوسكانه القادمة ، فلمعتدلون يدعون أن البت في المسألة عائد للمجلس الطوسكاني ، وأما الجمهوريون فكانوا يصرحون بأن الوحدة مع روما قد بت فيها وأن المجلس الموحد هو الذي يحق له أن يبت في القضية ، ومع أن جيرازي في الظاهر قد قرر الاتحاد الدبلوماسي الجمركي فإنه اتفق ومازبني على أن يؤجل الانضمام السكلى قدر الإمكان ، وكان مهلاً استمالة أهل طوسكانه إلى فكرة التأجيل لأن في الانضمام تفقد فلورنسه مكانتها كعاصمة وتضحي مدينة ليفورنا في سبيل مدينة جيفيتا فوكيا أضف إلى ذلك أن طوسكانه كانت ترغب في الابتعاد عن مشا كل القضية البابوية ، وقد أعانت هذه الأمور جيرازي على أن يصدر قانوناً في غياب مونتاني يترك فيه حق تقرير شكل الحكومة إلى المجلس الطوسكاني .

ونشطت الحركة الرجعية وأخذت تنذر بالقضاء على الجمهوريين والرؤساء الثلاثة ، وكان القرويون الذين يدعوهم (كابوني) بشعب طوسكانه السيد ، يخاضعون أية حكومة تريد الحرب ، فكان من

السهل على الأشراف ورجال الاكليروس أن يستغلوا شعور هؤلاء القرويين في الحملة على الحكومة التي نفت الدوق وراقبت رهبانهم وهددتهم بالضرائب ويارسال أولادهم إلى الحرب في سبيل أمر بعيد المنال ، وهاجمت بعض عصابات القرويين المسلحة فلورنسه وبرانو ، أما سكان المدن فكانوا على النقيض من القرويين ينظرون إلى الجماعات الموالية للامير ولكن لا تطمئن نفوسهم للحكومة ، أما الرهبان فأخذوا يمتنعون من تركية الذين صوتوا للمجلس التأسيسي ، أما الأذكىاء من الناس فرغبوا في أن يظلوا بعيدين خشية ثورة مضادة ، وقد أجل الرؤساء اجتماع المجلس التأسيسي جهد المستطاع ويظن أن الذين اشتركوا في الانتخابات للمجلس المذكور كانوا أقل من خمس ذوى الحق في الانتخابات ، وقد أهمل الانتخاب العام للمجلس التأسيسي الإيطالى فى روما ، ولم يسع المعتدلون والرجعيون انتخاب مرشحين فنالت الحكومة أكثرية بنسبة اثنين ضد واحد ، وبعد افتتاح المجلس بيومين وردت أخبار نوفمبر فاعلن جيرازى بصراحة أنه ضد الجمهورية ، فما كان من مونتالى إلا أن أقنع المجلس بإعلان جيرازى دكتاتوراً رغبة منه فى أن لا يضعف الحكومة فى سبيل قضية لا رجاء فيها ، وأصبح هم جيرازى الوحيد حينئذ إنقاذ طوسكانه من استيلاء الأجنبي عليها وأخذ يفكر كآخر تدبير — رغم معارضة الشعب — فى إعادة الدوق الكبير وحمل المجلس التأسيسى على تأجيل البت

في الوحدة مع روما، وأجل اجتماعاته اثني عشر يوماً وناشد الأحزاب أن تترك الخلافات وأن تتحد في سبيل إنقاذ البلاد، وبذل جهوداً خارقة للقضاء على كل شغب، ومع ذلك فإنه لم يلبّ دعوته للتطوع إلا فلورنسه وليفورنه، ولاحظ جيرازي أن منصبه أخذ يتضمن معضد وأبي المعتدلون معاضدته واستعدوهم لجلب الدوق الكبير آملين أنه إذا عاد بواسطتهم سيهدى من نقمة النمسه ويحل المجلس التأسيسي ويضمن لهم تقلد مهام الحكم، وبينما كانوا يرسمون الخطط لذلك حدث شغب في فلورنسه، وذلك أن جيرازي كان طلب بعض الكتائب من ليفورنه، إما لتجهيزها وتدريبها كما ادعى، وإما لتقوية موقفه، وكان سلوك أفرادها وأعمالهم فظة بحيث هيجت الفلورنسيين وهاجموا إحدى الكتائب في ١١ - نيسان، فاستفاد المعتدلون من هذا الشغب واستغلوا الجماهير واستولى القرويون الموالون لهم على المدينة، فأعلن المجلس البلدي نفسه حكومة مؤقتة باسم الدوق الكبير واحتل قصر (بلازو - فيجيو) وطرد أعضاء المجلس، وكان بإمكان جيرازي أن يستمر على المقاومة في بيستونه وليفورنه إلا أنه يئس من الحالة والتجأ إلى كابوني. ومما يدعو إلى افتخار إيطاليه أن الزعماء في روما كانوا يتحلون بصلابة أشد منها عند غيرهم وقد تألفت فيها لجنة تنفيذية أو إجرائية تقلدت سلطة الجمهورية العليا، وكان على رأسها الحاكم أرميلاني ومن وزرائها الحبر موزاريلي وهو من الأحرار، وقد علمت الحكومة (م ١٦)

أن أول ما تحتاج إليه البلاد هو الحرية ، حرية التعليم وحرية التنظيم وحرية تنمية واردات الدولة . ويتلخص منهج أرميليني بقيام إدارة مالية نزيهة وإصلاحات قضائية ، بلدية وتأمين حرية العمل والإشراف العلماني على التعليم والعدل والمشاريع الخيرية ، ونقل أملاك الكنيسة إلى الأمة ، وقد شرعت الحكومة بتنفيذ هذا المنهج بدراسة وثبات . وكان مازيني الذي ألهم هذه التعاليم نائباً بسيطاً ، فتم له يبلوغ هذا المنهج نصف المثل الأعلى الذي كان يحلم به وهو مثل روما المقدسة الخالدة . لكن المنهج لم يتناول تنفيذه جانب مشاريعه الاجتماعية . فأخذ ينتقد المجلس بإضاعة وقته بالمشاحنات الحزبية بينما النمسه واقفة بالمرصاد ، ويقول متى نالت إيطاليا حريتها ، حينئذ وقت وضع الدساتير ، أما الآن فيجب قبل كل شيء محاربة النمسه ووقوف روما الجمهورية بجانب ييمونته الملكية ورغم رفض اليمين والوسط إقترح مازيني بإرسال النواب للنواحي لاستنهاض الشعب ودعوته للدفاع ، فإن البلاد قد استعدت للحرب بعض الاستعداد ، فلما شاعت أخبار نوافره كانت القطعات في طريقها نحو الحدود . حينئذ توجهت جميع الأنظار نحو مازيني بصفته الزعيم الوحيد في تلك الأزمة . فانسحب موزاريلي وتألفت لجنة ثلاثية من (مازيني وسافي وراميللي) تولت شؤون الحكم ومنحت سلطة غير محدودة لإدارة الحرب والدفاع عن الجمهورية ، وقد أسرع مازيني لإرسال القطعات ولكنها قبل أن تصل إلى

ضفاف نهر بو وردت أخبار الهدنة فقصى بذلك على آخر أمل في الاشتراك في الحرب في لمبارديه . وبعد أن ضاعت فرصة إنقاذ إيطاليه الشمالية تفرغت اللجنة الثلاثية للإصلاحات الداخلية . وكانت آخر الإصلاحات تتعلق بالمشكلة العويصة أى مشكلة علاقة الكنيسة بالدولة . ولم تتخذ كلمة الاكايروس في معارضة الجمهورية ، فالحبر موزاريلى مثلاً رفع القناع في المعارضة ، وأما الحبر فانورا فبعد أن حاول عبثاً في تأليف البين بين البابا وأهل روما إنحاز إلى أهل روما . ولما تأكد الرهبان ورجال الدين في القرى من أن إصلاحات مازينى تريد في روايتهم إنحازوا إلى جانبه ماعدا بعض الرهبان في بعض المناطق الزراعية الذين أبوا مباركة نكاح الذين اشتركوا في الاقتراع مؤيدين . ومع أن الحكومة أصرت على أن يخضع الاكايروس للدولة فإنها حالت دون اضطهادهم وعاملتهم بالحنسنى حتى أنه ترك أسقف جيفيتا فيكيا يتآمر مع جايته واكتفى بنفى أحد إخوان البابا إلى خارج الحدود حين شوهد يحرض الناس على الخيانة . وكانت الجرائد البابوية تقرأ بحرية وكان مثل مازينى في هذه السياسة « تشدد في البادىء وتساهل مع الأشخاص » . وطبيعى أن يؤدي هذا التساهل إلى ضعف فاضع في الإدارة . وكان أعداء الجمهورية يقبضون على ناصية الشؤون العامة ، وكان راميلينى (صفرآ) وسافى وديماً وفيلسوفاً ، أما مازينى فتعوزه الكفاية في الشؤون المالية والإدارية ، فلم يكن

بمقدور هذه السلطة الإجرائية العاجزة أن تطهر البلاد من الجرائم .
وراحت أحقاد عهد جرجوار القديمة تتحين الفرص لتتفجر ،
وظل أشد الموظفين فساداً مسترسلين في فسادهم ، واسعد المتطرفون
للإستيلاء على الحكم بعد أن غاظهم ضعف الحكومة . وأخذ
البعض من متطوعة غاربا لدى يشاغبون ، ومع ذلك فقد استطاعت
الحكومة أن تقبض على ناصية الحكم بمساعدة الحرس المدني .
بيد أن النموذ الناشيء من طول المفاوضات السرية وتوهم
الناس بأن هناك مؤامرة تحاك في المدينة وبتهريض بعض
الرهبان لم ينفع احتياطات الحكومة في توطيد النظام ، فانتشرت
الفوضى في روما مدة من الزمن أعدم في أثنائها ثمانية رهبان
لإطلاقهم النار على الجنود وثلاثة قرويين بتهمة التجسس وخرب
بعض الأهالي حدائق البابا احتجاجاً على لين مازيني .
أما في ايلاتى الرومانى والمارك فحدثت وقائع مؤسفة جدا ،
إذ شجع ضعف الحكومة الجرمين فيها حتى القتل بالناس ، فاخت
عصابات صغيرة تغتال الموظفين وتفرض الغرامات على الأجانب ،
أما في انكونه فقد بلغ الإرهاب غايته ، إذ اغتيل ثمانية وعشرون
رجلا من جماعة السنافيدست ، ومع ذلك كله فقد كانت الجمهورية
تلقي تعصيذا سهلا عليها أمر الاستمرار في الحكم ، ولا يفوتنا
أن نعلم أن الجمهوريين من ذوى البدأ كانوا قلائل ، وفضلا عن ذلك
فإن عددا قليلا من هؤلاء كان مجهل مثل مازيني الأعلى ، أما الأكثرية

فكانت لا تبالي بمبدأ ، ولكنها سئمت من التبدلات السياسية واغتبطت بأنها تخلصت من حكومة الرهبان ، ولم تكن راضية عن ضعف المعتدلين وترجرجهم وتريد التملص من حكم الاكليروس مها كلفها الأمر ، فكان ذلك سر انحيازها إلى الجمهورية باعتبارها الحكومة الوحيدة التي تؤمن هذه الغاية ، وبعد أن تمت الانتخابات البلدية في جو صاحب انحازت المجالس البلدية باستثناء اثنين منها إلى جانب الجمهورية ، ولكن الرهبان ظلوا يحرضون الناس على الاستياء وظل الجيش قلقا ، وظلت الخيانة تنسف الإدارة ، وأخذ البعض من المعتدلين يتآمرون بنشاط ، أما كتلة القرويين فرحبت بالحكومة التي انقذتهم من ظلم السنانفديست ، أما الطبقة الصناعية وصغار الملاكين الذين أخرجوا أكثر النواب من بين صفوفهم فقد أظهروا صداقتهم للجمهورية ، ولا تنس أن أكثر الحرس الوطني وصغار التجار كانوا يحبون الجمهورية لذاتها .

وحينما كسبت الجمهورية عطف أهل روما على الصورة الآنفة الذكر ، أخذت الدول الأوربية تستعد للقضاء عليها ، وقد عزم البابا على العودة إلى عاصمته بصفته متبوعا مطلق التصرف يفوق في ذلك جميع اسلافه . وكان انتونلي يعتمد على الرجعيين في روما وعلى عملائه المنبئين في بعض المناطق ووزعت مناشير تطالب بالقضاء على الأحرار ، ولكن الحرس الوطني استطاع أن يقمع حركات العصيان التي حدثت في بعض الأنحاء ، ولكن اضطرابا أشد خطورة

نشب في أطراف (اسكولى) حيث قام أحد الرهبان يحرض القرويين على حرب مقدسة ويدعوهم إلى النهب والحرق . وكانت مونتاني يعتمد خصيصاً على أنصار البابا في البلاد الأجنبية وترى سياسته إلى وضع البابوية تحت حماية الدول الملكية وقد تحاشى جانب فرنسه إلا أن فرنسه لا يمكن تحاشيها وكانت قد اقترحت في ١٨ — شباط احتلال ممتلكات الكنيسة من قبل النمسة وأسبانية وناپولى وفرنسه ، ، فوافقت الدول الملكية الثلاث على هذا الاقتراح فوراً ، وقد تأهبت أسبانية قبل ذلك لإرسال قوة ، وأخذت القطعات النابولية تسرح وتمرح بالقرب من الحدود الجنوبية وتشجع العصاة في أسكولى ، أما القائد النمسوى فقد احتل قراره وأخذ يستعد لتقديم نحو (بولونيه) .

وظلت فرنسة تؤيد بيمونته في احتجاجها على كل تدخل في شؤون ايطاليه إلا أن الاتجاه الرجعى المحافظ في فرنسه قيد الحكومة ، وكان (فاللو) يمثل الكاثوليك المفرطين في الوزارة ، وبينما كان الحزب الجبلى يرسل تحياته إلى الجمهورية الجديدة كان رأى الفعّال في فرنسه يسند فاللو ، ومع أن رأى العام الافرنسى كان يقول ببقاء السلطة الزمنية من حقوق البابا فانه في الوقت نفسه كان خصماً للنمسة ، وقد عجّلت أبناء نوافرة في نشاطه وكان لويس نابليون يريد اعلان الحرب فوراً مستنداً إلى الحزب الجبلى وحزب الوسط ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى بلوغ أغراضه الشخصية

والحصول على تأييد الكاثوليكين ، وقد استغل الوزراء حماسة الشعب وقرروا احتلال جيفيتا فيكيّا وإعادة البابا إلى عاصمة ملكه رغم أهلها ضاربين ببياناتهم السابقة عرض الحائط ، وسموا في الوقت نفسه إلى أخذ تصريح من البابا يؤيد فيه الدستور ، وقد وصلت القوة الموفدة لتنفيذ القرار إلى جيفيتا فيكيّا في ٢٤ — نيسان بقيادة أودينو . فاصدرت اللجنة الثلاثية الأوامر بمقاومة حركة النزول مهما كلف الأمر ، بيد أن المدينة لم تكن في حالة صالحة للمقاومة ، ومع أن أودينو حاول الوصول على موافقة المجلس البلدى بممسول الوعود إلا أنه بمجرد ما أنزل قواته إلى الساحل رفع القناع عن نيّاته ، ورغم التعليمات الصادرة إليه بأن لا يتقدم نحو روما ما لم يكن واثقا من ترحيب أهلها ومساعدتهم اياه ، ولكنه اعتماداً على مزاعم انصار البابا اعتقد أنه لن يلاقى أى مقاومة فعزم على الزحف على روما وقد ارتبكت اللجنة الثلاثية والمجلس من هذا الحادث ، وكان مازينى وشارل بونابارت لا يزالان يعتمدان على إخلاص الجمهورية الافرنسية ، وكان النواب مترددين فى تقرير التفاهم ولكن حين جاء مندوب أودينو يقول بأن سيده إنما ينوى إعادة البابا إلى عرشه زال كل تردد ، واعترم المجلس المقاومة مهما كلف الأمر وهاج الرأى العام ، وطالب بقطع المفاوضات ، وغدا لا يحتمل رؤية الجنود الافرنسيين يجتازون أسوار روما حتى إذا اعترفت فرنسه بالجمهورية ، وأصبحت الحرب لا مناص منها وظن أودينو أن

الطليان لن يقاتلوا فباشروا هجومه في ٣٠ - نيسان بغية الاستيلاء على المدينة بالقوة ، وكانت قوة كل من الخصمين نحو عشرة آلاف ، فخارب الافرنسيون بشجاعة إلا أنهم استصغروا شأن عددهم فلقوا منه خصماً لا يقل عنهم شجاعة فضلاً عن أنه يحارب مؤمناً بقضيته فانكسرت الفرقتان الافرنسيتان بعد أن خسرتا ألف رجل وولتا الأدبار مسرعين خشية انقطاع خط الانسحاب عليهما ، وطلب غاريبالدى حينئذ من اللجنة الثلاثية بالحاح موافقتها على مطاردة الخصم ، إلا أنها كانت ما تزال تتوقع التفاهم وتخشى عرقلة مساعي الحزب الجبلى الذى يعمل لمصلحتها فى باريس ، وبذلك لم تنجح لا القوة ولا الخديعة ، واقتنعت الحكومة الافرنسية بأنها خانت المبادئ الجمهورية ولجأت إلى الغدر الذى أسخط عليها السياسيين ، ومع أن (جول فافر) أسقط الحكومة الافرنسية فى المجلس التأسيسى غير أن لويس نابليون كان يعلم أن الانتخابات المقبلة سوف تسفر عن أكثرية عظيمة محافظة تكون بجانبه ، وقد جعل من نفسه فى لباقة المدافع عن شرف الجيش وكتب إلى أودينو مزدرياً بتصويت المجلس وأرسل دى لسبس لمفاوضته حكومة روما ، وفى ٣٠ - أيار اتفق مع اللجنة الثلاثية على تفاهم ، وعده فيه دى لسبس بالإقلاع عن نية الاحتلال ، إلا أنه يرفض الاعتراف بالحكومة الجمهورية . وأوشك أن يتم لولا أن مناورات الحكومة الإفرنسية الخفية جعلت نشوب الحرب ثانية أمراً لا محيد عنه .

ولما تمت الانتخابات وجاءت الأكثرية محافظة في جانب لويس نابليون أصبحت الحكومة في موقف تستطيع معه أن ترفع القناع عن نياتها بيد أن القضية أصبحت وقتئذ تهم الدول الكاثوليكية كلها، وأخذت كل واحدة منها تسمى لتسبق غيرها في الزحف على روما . فالأسبان كانوا على أهبة انزال خمسة آلاف جندي في (فيومجينو) . أما جنود نابولي فقد احتلوا أطراف باليسترينا إلى أن هجم عليهم جنود روما وهزموهم إلى ما وراء الحدود ، أما القائد النمسوى فقصف مدينة بولونية واضطرها إلى التسليم بعد أن دافعت دفاع المستميت ثمانية أيام

وبعد أن قاومت أنكونه شهراً شرع النمسيون في حصارها ، ولو أطلقت أيدي أهل روما في حركاتهم لاستطاعوا أن يوجهوا قوات فائقة نحو القائد النمسوى ويطوقوه . وكانت فرنسه في تقييدها للحركات جيش روما خير حليفة للنمسه . ولما وردت مدافع الحصار إلى جيش أودينو تجلت مقاصد الحكومة الافرنسية على حقيقتها . فبعد أن أقام أودينو المراقيل في سبيل نجاح المفاوضات استولى على مواطن الدفاع عن شمال المدينة ، وحينما تلقى دى لسبس من باريس أمراً بالعودة ، استلم أودينو أمراً باحتلال روما بالقوة . و بإعلان الحرب انتهى عهد المفاوضات الغامضة الطويل . وكانت الحكومة منذ أيام قد فقدت سلطتها على المدينة وعاد غاريبالدى من فللترى حانقاً لأن اللجنة لم توافق على استثمار النصر

وتأذن له بالتقدم نحو نابولي ، وطلب أن يعين دكتاتوراً لأنه كان دائماً الاحتقار لحكومة روما ويعتبر مازينى مهذاراً . وبينما كان أودينو يملك ٣٠ — ٤٠ ألف جندي ومدفعية حصار قوية لم يكن لدى أهل روما إلا ثلاثة عشر ألف جندي ناقص العدد ، أكثرهم من دولة روما ومن جملتهم ثلاثة آلاف من الحرس الوطني والمواطنين المسلحين . وقد باشر أودينو الحركات بالفور حسب عادته . وكان قد وعد بأن لا يشرع في الهجوم إلا صباح اليوم الرابع من حزيران ولكنه في الليلة الثانية من الشهر . وفي نهار الثالث باغت نقطتين من ستارات الرومانيين ، واشتد القتال في الحدائق والكروم . ورغم كثرة الجند الافرنسي الفاتكة استرد الرومانيون مباني المصانف عدة مرات ، بيد أن البطولة وحدها لا تسد النقص الناجم عن قلة العدد واخطاء غاربيالدي . وبعد قتال دام ثلاثة عشرة ساعة أخليت المواضع ، وإذا كان الرومانيون قد خسروا بذلك الأرض خارج أسوار المدينة ماعدا معمل فاسجيللو ، فانهم أنقذوا المدينة من المباغطة وألجأوا الافرنسيين إلى محاصرة المدينة حصاراً منتظماً معرضين إياهم إلى مرض الملاريا الذي قد يضطربهم إلى رفع الحصار إذا طال أمده ، فالقصف الذي لارحة فيه ولا هوادة كما كان يتوقعه الكرادلة كان مظنوناً أن يلجئ المدينة إلى التسليم السريع وأن المدينة إذا لم تنجد من الخارج فإن استلامها يتوقف على الوقت فقط ، إلا أنه على الرغم من تناقص الذخائر فإن أحداً من أهلها

لم يطلب الاستسلام وصبر السكان على القصف من دون أى تدمير
وكان فتوراً قد حذر الرهبان قائلاً « إذا لم تسر الكنيسة مع
الشعب فالشعب يسير من دونها لا بعيداً عنها فحسب بل سينالونها »
ولم تكن قلة الرجاء فى المقاومة لتخفف من حماسة الناس وحميتهم ،
وقد تقدمت ستة آلاف امرأة للخدمة فى المستشفيات وتجلت
البطولة الإيطالية فى الدفاع عن عاصمة إيطاليا ، فهذا غاريبالدى
ورفقائه الذين حاربوا بجانبه فى أمريكا يجاهدون وهذا (مانورا)
الفتى المبلانى مع القناصين الماهرين من أهل لبارديه ، وهؤلاء
الأشراف يقاتلون إلى جنب أبطال الأيام الخمسة ومتطوعة الحرب
فى التيرول ، أما ماميلى الشاعر وداندولو وبيساكانه وبيكسيو
وميديجى وكثير من الفتيان الأبطال ، فمنهم من مات فى سبيل روما
ومنهم من عاش ليصبح من قادة المعركة فى المستقبل ومنظميها .
وكثيرون من هؤلاء لم يكونوا من الجمهوريين ، وكان البعض منهم
من الأشراف ، إلا أن حب الوطن وسحر روما ساقاهم للقتال
فى المعركة الأخيرة فى سبيل إيطاليا ، وكانت الحكومة جديرة
بالمدافعين عنها وقد حافظت على الأمن بصورة تامة طول مدة الحصار
وأدارت الشؤون المالية بدراية ونزاهة ، ورغم قلة الغذاء فالجماعة
لم تنتب المدينة . وأظهر مازينى نشاطاً كبيراً وآراء صائبة ، واستطاع
أن ييث فى الملتفين حوله حماسه وآماله . وكانت الحكومة تأمل
أن توفق الحزب الجبلى فى باريس فى حمل الحكومة على الأخذ

بسياسة الظاهرة الإيطالية وأن إنجلترا تتدخل . بيد أن بالمرستون كان تحت رحمة الكويك بنيسيت وكانت الثورة التي شبت في باريس في ١٣ — حزيران آخر جهد قام به الحزب الجبلى .

وبعد مرور ثمانية أيام على محاصرة روما استولى المهاجمون على المعقل وانسحب المدافعون إلى جدار أوريليانوس بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ، ولم يترك مديحي معمل فاسيللو إلا بعد أن خسر ثلثائة رجل من رجاله ، أما مانورا فقاوم قوات تفوقه أضعافاً مضاعفة ، ولما لم يبق لدى المدافعين سلاح وحارب الأبطال الفتيان بسكاكينهم إلى أن خر رئيسهم صريعاً . وأراد مازينى أن يقاوم أيضاً إلا أن غاريبالدى صرح فى المجلس التأسيسى بأنه لارجاء فى القتال ، وقرر النواب إنهاء حرب لا فائدة منها ، ودخل الافرنسيون المدينة وكان الأهليون حين مرور الجنود بالطرقات يسخرون منهم ويهتفون هتافات عدائية لهم . وغادر مازينى روما مترقباً الفرصة لاستئناف القتال ، أما غاريبالدى فطلب إلى الذين رفضوا التسليم أن يلحقوا به على أن يعلموا بأنه ينتظرهم بالجوع والمعش والسهر . فسار وراءه ثلاثة آلاف يطارد هم الافرنسيون والاسبان والنمسيون ثلاثة أسابيع وسامهم القرويون خسفاً وأخذ عددهم يقل بمن يهرب منهم يومياً . ثم وصلوا إلى سان مارينو حيث تفاهم غاريبالدى مع السلطات على أن لا يصيب رجاله سوء ، ثم سافر مع مائتين

من أصحابه الأوفياء وزوجه (أنيتا) إلى (سسينه) وأبحروا منها إلى البندقية بيد أن السفن النمساوية ضبطت بعض قواربهم واضطر البعض الآخر يلجأ إلى الساحل وماتت (أنيتا) في غابة كوماجيو فلاقى غاريبالدى تشرداً منقطع النظير في شبه الجزيرة التي كانت مراقبة من كل جهة ، وقد خصص مبلغ عظيم ان يقبض عليه .

الفصل التاسع عشر

البندقية في عهد إدارة مانين

آب — ١٨٤٨ : آب ١٨٤٩

وبعد أن خضعت صقلية وطوسكانه وروما لم يحقق علم الحرية الإيطالي إذا استثنينا ييمونته إلا فوق مدينة واحدة ، وهي البندقية ، ظلت هذه المدينة تزدرى بشوكة الامبراطورية النمساوية من دون أن تنال أية مساعدة منذ شهر آب في السنة المنصرمة ، ولم يطل عهد الحكومة الشبه ييمونته بعد صدور قرار الانضمام في شهر تموز أكثر من شهر واحد ، وما وردت أخبار هذنة سلسكو لم يكن قد مضى على وصول المندوبين البيمونتيين أكثر من خمسة أيام ، وكانت هذه الهدنة قد انتهت حكم ييمونته القصير المدى ، وقد أدى الهياج العام الذي حدث بعد هذه الأخبار إلى انسحاب المندوبين ، فأصبح مانين دكتاتوراً بالفعل ، فسارع إلى إلغاء قرار الانضمام بعد أن خانت ييمونته البندقية بعقدها الهدنة ، وأعلن بأن حكومته وقتية ، وأن المجلس التأسيسي الإيطالي سوف يبت في مصير المدينة في المستقبل ، وكانت حكومته جمهورية فعلا ، وكان أول ما يشغل البال في ذلك الحين إيقاف النمساويين عند حدهم

وحين رفضت البندقية بإباء التخلي عن حريتها أجابت النمسه بتطويق المدينة .

وكانت الهدنة قد منعت البيمونتيين من إسداء المعونة لها وإن ظل أسطولهم راسياً خارج نطاق الحصار ، وكان مانين يتوقع لبلده خيراً من انجلترا وفرنسه ، بيد أن بلمرستون أعلن بصراحة أن انجلترا لا تشترك في حرب ما ، وأنه سيبذل جهده سياسياً لإقناع النمسه بالتنازل عن مطالبها بشأن المدينة ، أما موقف فرنسه فكان لا يختلف عن موقفها السابق المزرى ، فبينما كان ساستها يصرحون من جهة بأنهم لم يتخلوا عن البندقية كانوا من جهة أخرى يفاوضون النمسه على سلم لا يبقى للمدينة سوى حكمها الذاتي ، وظل مانين يعتمد على مظاهرة فرنسه رافضاً كل حل يربط البندقية بامبراطورية النمسه ، ولما أكد له لويس نابليون في شهر شباط أن لفرنسه من المشاكل الداخلية ما يحول دون دخولها في حرب ما ، اقتنع مانين بأن البندقية يجب أن تعتمد على نفسها ، وأنه لا ينقذها إلا نصراً إيطالياً أو هنغارياً عدواً للنمسا ، ومع أن نطاق الحصار أخذ يشتد طول الشتاء فإن البندقيين ظلوا لا يثبط أى اخفاق عزائمهم أو يوهن جلدتهم ، واستولى النمسيون على القسم البرى بأجمه ماعد رأس جسر (مالفيرا) وعلى الرغم من وجود الأسطول الافرنسى والبيمونتى ، فإن الحصار قد ضيق الخناق على المدينة ، فانقطعت صلتها بالخارج نحو ستة أشهر ، وكانت دار الصناعة

ما تزال تحتوى مقداراً كبيراً من العتاد الاحتياطي ، وكان القائد بيه ينفخ في جنده حماسة لا تقهر ، وقد اختار للعمل هيئة أركان حرب بارعة ، ومع أنه خسر جنوده النابوليين الذين رجعوا إلى بلادهم بعد الهدنة ، فقد ظل تحت إمرته نحو عشرين ألفاً ، من أربعة عشر ألفاً من أهل البندقية والباقي من أهل روما وشمالي إيطاليا .

وقد تجملت شجاعة الحكومة والشعب في أجلى مظاهرها ، وكانت مهمة مانين ورفقائه في اللجنة الثلاثية تأمين إعاشة مائة وثلاثين ألفاً من النفوس ، وذلك يقتضى يداً حازمة ولطيفة في آن واحد ، وقد دلت الحوادث على أن البندقيين كانوا جديرين برئيسهم ، وكانوا يرون القتال جهاداً مقدساً ، فلذلك يسارعون إلى تلبية الداعي بتقديم ما لديهم ، فقدم الأغنياء دراهمهم عن طيبة خاطر ، ولما طلبت الحكومة آنيهم لتصنع منها النقود لبوا الطلب بحماسة ، وأخذت المراسح تتبرع بوارداتها لشراء سفينة تجارية وأخذ الطلاب يقتصدون من غذائهم ، وكنت تقرأ على جدار المدينة ، « البندقية تطلب الدراهم من الكنائس والحلى من النساء والبرنز من النواويس والنحاس من المطابخ والحديد من قنابل العدو ، كل هذا ولا الخرواتين من أهل خرواتية » ، وكانت حادثة نوفارة قد أضاعت آخر رجاء في المساعدة من الخارج ، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد الاستسلام إذ قرر المجلس على أثر ورود أخبار نوفاره المقاومة مهما كلف الأمر ، ومنح مانين سلطة غير محدودة ، وكان النمسيون

يستمدون للهجوم وأخذت أعمال الخنادق تقترب يوماً فيوماً من حصن مالفيرا ، وبعد أن قاوم الحصن هجوماً عنيفاً في أواخر آيار ثلاثة أيام ، أصبح ركاباً من الحجارة وانسحبت حاميته أمام عدو يفوقها عشرة أضعاف ، ولم يستول اليأس مع ذلك على المدينة ، فأقر المجلس المقاومة مهما كلف الأمر ، وشاهد أهل البندقية في حزيران قنابل العدو تسقط على الجانب الغربي من المدينة ، وبعد ستة أسابيع حسن النمسيون رميهم وأخذت نارهم تصيب ثلثي المدينة فأخلى أكثر الحصون ، وانتشر في المدينة مرض التيفوس والهيضة وقضى على أربعة آلاف من الناس ، ولم يتذمر الشعب من جراء ذلك وظل يأمل خيراً رغم أن ييموته وفرنسه وهنغارية وروما تخلت عنه ، وقد قام أصحاب الزوارق بضروب من البطولة مدهشة وذلك باختراقهم خطوط العدو للحصول على بعض الذخيرة أو بعض الأخبار ، وتسابق الصبيان لاقتناص قنابل العدو الهيأة للانفجار لتسليمها إلى دار الصناعة وأخذ الناس يقولون : « القنابل ولا الحرواتين » .

ولم يحدث أى شغب حتى في أشد أيام الضيق الأخيرة ، ولما أدرك مانين أن كل رجاء قد ضاع أصبح يميل إلى قبول ما عرض من الحكم الذاتي ، ولكن بما أن شروط النمسيين كانت غامضة فإن المجلس قد رفضها بما يقرب من الإجماع ، ولكن الذخائر لم تكن تكفي أكثر من نهاية شهر آب ، وأخذ مانين يخشى بطش

النمساويين فيما إذا استولوا على المدينة من دون قيد ولا شرط ، وكان شعور الشعب ضد الاستسلام شديداً إلى درجة هددت سلطة مانين على المدينة . وأخذ توماسو يحيك الدسائس على رأس جماعة متطرفة تظن بأن الدخائر لا تزال محفوظة في محلات خفية وتطالب بالاندفاع بقوة كبيرة ، بيد أن بيه عاضد مانين بكل عزم حتى خوله المجلس أخيراً بأكثرية ضئيلة الصلاحية اللازمة للمفاوضة ، وفي ٢٢ آب استسلمت المدينة بعد أن كبدت النمساويين خسائر كبيرة تنوف على ثمانية آلاف قتيل وميت بمرض . ومع أن الخرواى النبوذ قد داس حرمة المدينة فإنها قد خلدت ذكرها بأعمال البطولة واستحققت التمجيد . أما مانين فقد ذهب بعد كل تلك المآثر إلى المنفى لا يملك شيئاً وعاش فيه عيشة المفكر العظيم بعد أن مثل في المدينة دور الرجل العامل .

وباستسلام البندقية ضاع كل شيء . وابتليت البلاد بحركة رجمية عنيفة ظالة همها الانتقام والاضطهاد . وفي خلال سنة واحدة خابت الآمال العظيمة التي كادت أن تتحقق ، وأخذ الناس يتساءلون عن الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة المحزنة ، وقد أيقنوا أن السبب الأول هو تفوق قوة العدو مع أن هناك أسباباً أخطر من ذلك أدت إلى هذا الفشل اندمجت في طبيعة الحركة . فكانت حركة سنوات (١٨٤٦ — ١٨٤٩) ترمى إلى الاستقلال فقط من دون المطالبة بالوحدة وحتى أنها لم تكن تسعى إلى الاتحاد كل

السمى ، وكان عدد أنصار الوحدة قليلاً جداً . أما جمهورية مازيني
الوحدة فسرعان ما أصبحت حبرا على ورق ، وأما القلائل من
الرجال الذين ارتأوا وحدة ملكية بزعامة شارل البرت فأظهروا
عجزهم عن استكثار الأنصار ، ولم يفكر الالبرتون الاقحاح في ضم
نابولي إلى بيمونته وفكروا قليلاً في ضم الوسط ، ولم يتجاوز
تفكير رجال الحكم في بيمونته وادي بو وإيالة الروماني وأعرضوا
عن صقلية بينما كانت مستعدة للانضمام إلى بيمونته ومع كل ذلك
فإن الخوف من توسع بيمونته ولد شعوراً عميقاً من الشك ورد
الفعل كثيراً ما استغله الديموقراطيون وأنصار الملوك الآخرين ،
وقد تأمر مونتانيلى ضد ضم لمبارديه إلى بيمونته . أما في لمبارديه
نفسها فقد بذل الديموقراطيون والجمهوريون جهدهم للحيلولة دون
الانضمام ووضع رجال الدولة الأحرار في نابولي الخطط لتوسيع
ممتلكات فرديناند .

ومما زاد في الطين البقي تلك الاختلافات بين المعتدلين
والديموقراطيين أضف إلى ذلك ندرة الرعاء الأكفاء الذين
لو تيسر وجودهم لذلوا كثيراً من هذه الصعوبات ، ولا غرو فإن
بلاداً حديثة العهد بحريتها لا تستطيع أن تخلق رجال دولة شعيين .
ولما كان الرأي العام لا يتحمل أن يرى وزراء الاستبداد
في الحكم ، فلم يكن مناص إذن من أن يتوجه رجال الأدب الذين

قادوا الحركة الوطنية ، فكان الوزراء الأولون في سنتي ١٨٤٨ — ١٨٤٩ بلا استثناء من الرجال الذين اشتهروا بأقلامهم ولم يكونوا مزودين بثقافة سياسية كافية ، أضف إلى ذلك كله أن الموظفين كانوا ضد الثورة . أما الإدارة في طوسكانه وروما و نابولي فكانت خصيصة لكل حدث جديد . وطبيعي أن تسير الثورة التي يتخلل عنها الموظفون وتعاكسها الإدارة في طريق وعمر .

الفصل العشرون

بيمونتته بعد نوفاره - الارتجاع

١٨٤٨ : ١٨٥٠

لقد كانت نوفاره كارثة عظيمة نزلت بيمونتته وهي على فداحتها ما كانت لتجيز لبيمونتته أن تستسلم وأن تترك المملكة تحت رحمة الغالب ، فالجيش رغم ما أصابه من الذعر وفتور الهمة كان لا يزال سليماً . وكانت فرنسه على أهبة التدخل ولو اجتازت قواتها الحدود لاضطر راديتسكي إلى الانسحاب مسرعاً ليحتمى بالقلاع الأربع . وكانت بيمونتته قادرة على إطالة أمد المقاومة وراء الكسندريه وتورينو ورغم الغضب والذعر والارتباب من الخيانة فإن الهتاف كان لا يزال يدوى عالياً بتأييد المقاومة واستنكار الخضوع ، إذ كيف يصح لبيمونتته أن تستسلم والعلم المثلث الألوان ما يزال يخفق فوق روما والبندقية وبولونية وبرسيه .

ولما أطلعت تورينو على خبر الانكسار أصدر المجلس النيابي قراراً يدعو فيه إلى التجنيد العام واستغل الديموقراطيون اسم شارل ألبرت ودعوا الشعب إلى الاستمرار على المعركة التي بدأ بها الملك الوطني ولكن ذلك كله لم يحل دون عقد الهدنة ، ولما علم الناس

شروطها التي تتضمن احتلال الكسندرية مؤقتاً وسحب الأسطول الرأسي في البندقية أنكر الحزب القائل بالحرب الهدنة ، وعدها المجلس النيابي عملاً منافياً للدستور . أما في جنوه فقد أدى الارتياح من الحيانة إلى الثورة . فباغت أهل جنوه الحصون المحيطة بالمدينة واستطاعوا أن يستولوا عليها بحجة الدفاع عنها ضد الهجوم النمساوي الموهوم ، فاعتزمت الوزارة الجديدة التي تولت الحكم في عهد الملك الفتى فيكتور عمانوئيل الثاني أن تضرب أهل جنوه العصاة وسأقت عليهم الجند بقيادة لامارمورا ، وبعد قتال استمر يومين خضعت المدينة . ولا ريب في أن هذا العمل بادرة مخزية ، تشين بسمعة حكومة بيمونته الجديدة لقد كان بين رجال بيمونته من كان يفكر في إمكان المقاومة وأنها قد تنتهي بالفوز ولا سيما لأن خسائر الجيش كانت قليلة فضلاً عن أن الفرقة المبارذية كانت لا تزال سليمة وقوات مارمورا لم تشترك في القتال إلا في جنوه ، وقد يدفع غزم المستميت إلى النصر ، ولو أصرت فرنسا على سياسة الحياد ولكن لقاء هذا يقول رأى آخر بأن استئناف الحرب قد تؤدي البلاد إلى احتلال تورينو وإلى اشتداد الكارثة ولم تكن بيمونته مستعدة لمواجهة كل هذه الاحتمالات ، فالوآمرات الرجعية تحاك بين الجنود والقرويين والجيش أصبح لا يميل إلى استئناف القتال ، وكانت الحرب بنظر المعتدلين والرجعيين عبارة عن غلطة فاحشة ارتكبها الديموقراطيون ،

ولم يكن المعتدلون والرجعيون يشعرون بأي عطف نحو الجمهوريين الذين كانوا يجاهدون في روما والبندقية في سبيل شرف إيطاليا . على أن هذا لا يمنع القول بأن المعتدلين كانوا كالدموقراطيين عازمين على أن لا يقبلوا أي شرط يمس بكرامة الأمة وكانوا يؤمنون كمنافسيهم برسالة ييمونته ويحملون لخلقائهم المباردين الشعور الحماسي نفسه ، وكانت أكثرية البيمونتين عازمة على القتال إلى آخر نفس بدلا من الخضوع لشروط مخزية تمس بمستقبل ييمونته . وكان الملك الفتى يمثل بشخصه عزيمة الأمة الباسلة وكان يحقد على النمسة قائلا « أعطوني أربعين ألفاً من الجند أفسخ الهدنة غداً » . ولكنه اعترم قبول السلم إذا كان شريفاً .

وفوجي^٢ الناس في ٢٦ إذا بتبديل وزارى وخلف رتازى الذى نبذه المعتدلون لوناى وهو من المحافظين من أهل صافو وكان معروفاً بمعارضته للدموقراطيين . فحل لوناى المجلس وصدرت الأوامر باجراء انتخابات جديدة . وفي أوائل أيار خلف لوناى دازجليو وكان شعاره « لا حرب ولا عار » وأنه إذا خير بين الأمرين فإنه يرجح الحرب ولا يريد أن يضحي بالللاجئين مهما كلف الأمر . واستمر على سياسة سلفه المعارضة ضد الأندية ، وكادت المفاوضات التى جرت بمد الهدنة تنقطع بسبب الشروط الثقيلة التى فرضها النمسيون ورفض ييمونته إياها . وكانت النمسة عازمة على عقد الصلح على أية صورة بشرط أن ترضى حكومة

فيكتور عمانوئيل الثاني بتعديل الدستور والاتفاق معها فقسّم بذلك من دفع غرامة حرية وتضم أيلة بارمة إلى ييمونته ، إلا أن الملك ووزرائه لم يلبوا الطلب ، ولما طالبت النمسه بغرامة حرية تبلغ (٢٣٠) مليوناً من الليرات وحل اللجنة المباردية كان جواب (لوناي) لها أنه لا يفاوض ما لم يعلن الامبراطور العفو عن رعاياه الطليان ويتخلى عن دعواه بالسيادة على دوقية لبارديه . ولما رفض النمسيون هذه المطالب واحتلوا الكسندريه قطعت الحكومة المفاوضات وطلبت توسط فرنسه وأجّلتْه .

ولم يكن حينئذ تفاهم أوربي على التدخل بين الغالب والمغلوب وأراد لويس نابليون أن يعلن الحرب بعد حادثة نوفاره على أن يحتل إيلة صافويه ومدينة جنوه مكافأة له على صنيعه ولكن حكومة ييمونته لم ترغب في دخول القطعات الافرنسية في أرض ييمونته إلا في آخر لحظة . ومع ذلك فإن دول الغرب قامت بمساع جديّة في فينا وكانت النمسه منهمكة في مشا كلها المالية وبالثورة الناشبة في هنغارية والبندقية بحيث عجّزت عن احتمال هذا الضغط ، فأخلت الكسندريه واستأنفت المفاوضات وظل الفريقان عند رأيهما لأن دازجليو كان لا يريد سلماً لا تكون فيه ضمانة لحياة اللبارديين . وكان النمسيون يتوقعون قيام حركة رجعية في ييمونته . وفي شهر آب قررت وزارة فينا بضغط فرنسه منح عفو شبه عام وتخفيض الغرامة إلى (٧٥) مليوناً بشرط أن يتخلى الملك عن بيازنسه . ثم عرضت

المعاهدة على المجلس المنتخب حديثاً ، وقد دلت الانتخابات على أن البلاد لم ترحب بوزارة لوناى وكان أكثر النواب من الديموقراطيين رغم أن نواب العاصمة كانوا من المعتدلين والرجعيين وعليه فإن المجلس قد ورث الحرب عن النواب القدماء وانتخاب (بارينو) لرئاسة المجلس أظهر النواب نياتهم وكان الجميع يدرك بأن المعاهدة لامناص منها ولا رغبة له في رفضها ومع ذلك فإن النواب عدّوا بعض موادها مخزية لأنها وإن كانت تصون أرض ييمونته إلا أنها تحول دون المطالبة بالتوسع . وحاول عبثاً بالبو إقناع المجلس بقبول المعاهدة باحتجاج صامت . وكان الغفو قد استثنى ما يقارب مائة شخص من اللبارديين والبندقين وكان المجلس يخشى مطالبة النمسه بتسليمهم إياها . وكان المجلس قد أقر اقتراحاً بمنح الجنسية لجميع الظليان المولودين في حدود الدولة اليمونتيه . ومع أن الوزراء كانوا قد اشتركوا في التصويت لهذا الاقتراح إلا أنهم أوقفوه في مجلس الأعيان ووافق المجلس في شهر تشرين الثانى على قرار بأكثرية ضعيفة يقضى بتأجيل تصديق المعاهدة حتى يضمن مصير اللاجئين .

فأدى فشل الوزراء إلى أزمة أخذت تهدد الموقف ولو كان الحزبان المعتدل والديموقراطى على وفاق لأصبح من السهل التفاهم بينهما على حل قضية اللاجئين ، إلا أن الاختلاف بينهما كان خطراً يتناول المعنى والشكل . ورغم أن رئيس الوزراء رفض توقيف

الدستور عملاً بقوصية بنيلي وريفيل فإنه أصدر إرادة ملكية بمحل المجلس وإجراء انتخابات جديدة وليس في هذا الأمر ما يعس الدستور ، إلا أن ما ورد في الإرادة من تعابير تهاجم الأكثرية وتهدد باستعمال الشدة إذا لم ينتخب مجلس ملائم ينافي بروح الدستور ، فلم يبق أمام أحرار إيطاليا إلا الاحتفاظ بالدستور ، حقا إن السنوات العشر التي مرت بتاريخ ييمونته هي تاريخ إيطاليا وأن الموقف الحازم الذي وقفته ييمونته في مفاوضات السلم بشأن الجنسية الإيطالية وثباتها في القضية الدستورية جعلها الأمة الإيطالية تنظر إليها نظرة إكبار وتعتبرها الدولة المجاهدة الباسلة ومما قاله (كافور) ، في مفتح خطابه في أثناء المذاكرة حول قوانين (سيكاردى) ، « على ييمونته أن تجمع حولها جميع قوى إيطاليا الحية وأن تقود أمتنا نحو الغايات السامية التي خلقت لأجلها » . وكانت تورينو قبل هذا وطناً لأبطال الثورة الذين أقصوا عن بلادهم وقد زاد عددهم في المدن الكبيرة حتى قيل إنهم بلغوا نحو خمس نفوسها ، وقد جلبوا لييمونته حياة وحرية جديرتين وجهزوها بعدد من أقدر المفكرين المشبعين بالروح الإيطالية ، أمثال المؤرخين فاريني ولافارينا وسكيا لوجيا والاقتصادي ميماني وتوماسيو وغيرهم من علماء وراء الطبيعة وفريق من أنبل أشراف اللبardiين والدموقراطيين أمثال كوردوفا وكريسبي من صقلية وكورانتى من ميلانو وأنخرط في الجيش ضباط من مودينه ولبارديه

ومعلمين من جامعة نابولي وكان المجلس النيابي نفسه يحتوى على رجال سياسة من جميع أنحاء إيطاليا وكان البعض منهم في الوزارة نفسها .

الارتجاع

طفت موجة من الارتجاع على جميع إيطاليا وكانت شديدة الوطأة في روما ونابولي وخفيفة في الأقطار الأخرى ، وأعطى الأفرنسيون روما إلى البابا الذي كان يعتقد بأن مستقبل الكنيسة يتوقف على استمرار تمتعه بالسلطة الزمنية ، وكانت صدمة تلك الثورة القومية قد أفرغته فما دخل روما حتى تحلى عن ميوله السابقة للحرية ليحيى عهد جرجوار بكل فظاعته ، وكان المتعصبون من رجال الدين الذين اجتذبوا البابا إلى جانبهم حريصين على الانتقام ومتهلفين للقضاء على كل ما تم في السنوات الأخيرة الثلاث .

لقد احتج مائتان وستون مجلساً من مجالس النواحي بما فيها جميع المدن المهمة بين روما ووادي بو على استعادة السلطة الزمنية ، وأيقن وكلاء البابا في الرومانى أن إعادة الحكومة في الولايات لن تتم إلا بمساعدة الحامية النمساوية فالحال كان النمساويون ينسحبون من مدينة يسارع أهلها إلى ركز شعار الجمهورية ، وكان الأفرنسيون قد اطلعوا تماماً على هذه الحالة الروحية فأخذوا على عاتقهم حماية المؤسسات الحرة وكان أكثر الأعضاء اعتدالا في وزارة روما وقتئذ

يريد ذلك ، وكان أودينو القائد الإفرنسى ، قد اتخذ أشد التدابير لمنع الجمهوريين من رفع رءوسهم واشترك المعتدلون فى الحكومة ومنحت جوازات السفر بلا عائق ، فحصل عليها آلاف من الناس بغية التخلص من نقمة البابا . الأمر الذى أغضب الكرادلة الذين رافقوا البابا فى جايته ، وأخذ البابا يتذمر من تسامح الإفرنسيين ولينهم وأصبح بلاط جايته يتشوق للتخلص من أصدقائه ، ليلقى بنفسه فى أحضان النمسة العطوف ، ولما كان الإفرنسيون يريدون أن يجعلوا من البابا أداة مساومة ضد النمسا فقد سارعوا لجلبه إلى روما تحت إشراف جيشهم ، وأعلن أودينو إعادة سلطة البابا إليه فى ١٤ — تموز ، وفى نهاية الشهر خول أودينو سلطانه إلى الكرادلة الثلاثة الذين أطلق عليهم اللجنة الثلاثية الحمراء ، وقد كان بين مطالبها الشديدة وبين اعتدال سلطة مازينى فرقاً عظيماً ، وظهرت للميدان شرطة البابا ومجلس التفتيش وأُخلى سبيل مجرمين السانفيديست وحلت الرشوة فى المالية محل الإدارة الجمهورية الصالحة النزيهة ، وكان مونتاني قد عرض على ممثلى الدول الكاثوليكية فى جايته مشروعاً وعد إليها فيه برعايته الحكومات المحلية ومساعدة العلمانيين على الاشتراك فى الوظائف بمقياس واسع والقيام بإصلاح الإدارة والقضاء وتأسيس مجلس دولة منتخب ولجنة استشارية خاصة بالشؤون المالية ، فلما طلب منه الممثل الإفرنسى أن يمنح اللجنة المالية سلطة تنفيذية بدلاً من سلطة استشارية وحته على

عقد مجلس تمثيلي أجابه مونتاني فوراً أن الحكم البرلماني لا يتفق مع حرية البابا الروحية .

وكان لويس نابليون قد أظهر مقتته بكتاب أرسله إلى زعيم (كولونيل) ، في جيش الاحتلال الإفرنسي بتاريخ ١٨ - آب هاجم فيه الكرادلة قائلاً : « إن الجمهورية الإفرنسية لم ترسل إلى روما جيشاً للقضاء على الحرية الإيطالية وإنما أرسلته لأجل تنظيم هذه الحرية وإنقاذها من الغلو » . وفي الكتاب يقول بضرورة صدور عفو عام وإقامة إدارة مدنية والأخذ بقانون نابليون المدني مشيراً بمرارة إلى الجحود الذي أنسى البابا الوفاء بتعهداته نحو فرنسه ، وقد كتب لويس نابليون هذا المکتوب على مسئوليته ولم توافق الوزارة على إرساله إلا لاعتقادها بأنه لا ينشر ، ولما شاع خبر المکتوب اتخذ مونتاني وسيلة ليعلن استقلاله وشكوكه في نيات فرنسه ، وانسحب البابا إلى قصر ملك نابولي في بورتيجي وأعلن للملاء أنه لن يعود إلى روما ما لم تتجاهل فرنسه هذا المکتوب وتتركه طليقاً في الإصلاحات التي يراها ضرورية ، وقال إن أقصى ما يتسامح به إرادة يعد بها بعفو غامض وإقامة مجلس دولة وتأليف لجنة مالية ومجالس إدارية في الولايات وسلطة واسعة للمجالس النواحي وإصلاحات في القضاء .

وكانت الاستثناءات التي وردت في العفو تتضمن إما إززال بعض العقوبات أو نفي جميع أعضاء المجلس التأسيسي وجميع أعضاء

الحكومات المؤقتة ومعظم رجال الجيش من ضباط الحرس الذين غص عنهم في سنة ١٨٤٦ وكل من كان له ضلع في الثورة . وقد اضطر آلاف من المواطنين المخلصين أن يقبلوا النفي والبؤس خيفة الاضطهاد ، وقد أظهرت السنوات التي تلت تفاهة قيمة الوعود بالإصلاح . ولقد عاد البابا في ١٢ — نيسان إلى روما محفوفاً بالجنود الأجانب دون أن يلقى أى حفاوة من شعبه وأخذ البابا يفخر بأن بلاطه مجرد من النفوذ الداخلى والخارجى وأنه يعاضد النظريات اللاهوتية الملائمة في إيطاليا وفرنسه وأنجلترة وتشجيعهما ويعهد للربان بالإشراف على التعليم ويضع عقائد جديدة ويقمع أية نزعة حرة . وإذا كانت البابوية قد أضاعت مركزها في إيطاليا فإنها أصبحت قوية في الخارج . وقد غدت الكنيسة تحت رحمة اليسوعيين بكل معنى الكلمة . ومع أن المعارضة الوطنية والحرة لم يقض عليها القضاء الكلى إلا أنها أصبحت بالعجز تدريجياً أمام الاقتراع الكاثوليكي العام في الأمم اللاتينية الذى كان يفضل الاستبداد الروحي على الحرية ويضم الكنيسة فوق الوطن .

أما في نابولى فبعد أن تحرر فرديناند من كل نفوذ أجنبى انطلق نحو استبداد لا مثيل له ، ومن ظريف ما يذكر أنه حمل المعلمين على أن يقولوا للتلاميذهم : « بأن الأمير في حل من الحنث في عيى الولاء للدستور ، إذا كان ذلك المين منافياً لمصلحة الدولة

العامة وأنه لا معنى لأى وعد يقطعه الأمير ويحدد فيه سيادته وسلطانه » ، وقد هنأه قيصر روسيه بصفته منقذ النظام الاجتماعى . وبعد أن لاقت منه صقلية عقاباً صارماً هوت على قدميه مضرجة بدمائها وقد أسرع فرديناند فحاً آثار الرقى الحر الذى تم فى السنة المنصرمة . فوضع التعليم فى مخالب الإكليروس وألزم التلاميذ فى كل جامعة بأن ينتموا إلى هيئة روحية وسمح لليسوعيين بالعودة ، وأصبح الوزراء عبارة عن مستشارى الملك لا أكثر . وكاد الوزراء الجديدون رغم هذا أن يثقوا حيناً من الزمن بوعود فرديناند بأن يعرئ الدستور ولكنه تعهد للنمسه بأن لا يفي بوعوده ولكى يسوغ ما يبتغى للدستور أرسل صناعته للولايات للحصول على استدعاءات يلتمس فيها موقعوها إلغاء الدستور ، وقد حمل الكثيرون على التوقيعات قسراً . ومع أن رئيس أساقفة نابولى رفض التأثير فى رجاله رفضاً باتاً ورغم أن المجلس البلدى فى العاصمة امتنع عن التوقيع فالتواصرة نجحت وأصبح فى اليد عدد من الاستدعاءات يسوغ تعطيل الحياة الدستورية .

ولم تقنع جماعة الكاماريللا بكل ما تم وسارت فى نابولى مظاهرة معارضة ، لعل الشرطة هى التى دبرتها وانفجرت قبلة بين الجماهير المتظاهرين وانتهاز أذنان البلاط هذه الفرصة لتنظيم حركة الإرهاب فقبض على اثنين وثمانين من وجوه الأحرار بتهمة انتمائهم إلى جمعية وحدة إيطالية الثورية . وكانت المحاكمة

التي استمرت ثمانية أيام أشهر عبارة عن مهزلة قضائية زُورَتْ فيها الكتب واختلقت التهم وأجبرت الشرطة الناس على الشهادات المزورة ولجأت إلى كل أساليب الضغط والإرهاب لإجبار المتهمين على الاعتراف وألقي التهمون في السجون مع المجرمين العاديين . ثم حكمت المحكمة على ثلاثة وعشرين منهم بالأشغال الشاقة المؤبدة أو الطويلة الأمد وكان بينهم بويرتو وسبتمبريني . وأدهشت هذه المحاكمة الرأي العام حتى أنها جلبت شفقة أهل سانتالوقا المضطهدين وأخذ الفقراء يبيعون الخبز لشراء الشموع ويشعلونها في الكنائس للحصول على عناية القديسين . وقد احتج السفراء على مهازل تلك المحكمة وعلى سياسة البطش الظالمة فكان جواب فرديناند أنه أرسل المحكوم عليهم مكبلين بالحديد إلى سجون وينسيده وأيشجيه . وكان المستر جلاستون وقتئذ في نابولي فاتصل بالمحكوم عليهم خفية واطلع على فظاعة ما يجري وقد شرح ما شاهده من فظاعة بكتاب أرسله إلى الكونت وامبردن في نيسان سنة ١٨٥١ ، ونشر الكتاب في لندن فأحدث هزة اشمزاز في جميع أنحاء أوروبا .

وظل الملك يزدري بالرأي العام العالمي إذ قبض على ستة وأربعين عاملا لمقاومتهم المظاهرة التي قام بها الجمع الموالي للملك قبل ثلاث سنوات وحكم على أكثر من نصفهم بالأشغال الشاقة لثمانى عشر سنة . ثم تلا ذلك حبس ثلثمائة شخص ومن بينهم

عشرون نائباً ، ومما يلفت النظر أن شهادة شخص ، كان قد حكم عليه خمس مرات بالاحتفال ، كانت كافية لأداة خمسة وعشرين متهما . وقد بلغ عدد المحكوم عليهم خلال سنوات الرجعية الأربع ما يربو على الاثنى عشر ألفاً ولم تنكر الحكومة أن عدد المسجونين السياسيين يبلغ أربعة آلاف . ويظن أن أربعين ألفاً من الناس قد وقفوا أمام المحاكم .

أما حركة الارتجاع في طوسكانه فلم تكن شديدة الوطأة شأنها في روما ونابولي بعد عودة البابا وفرديناند إليهما ، ذلك لأن الحركة التي عا كست الثورة كانت شعبية من جهة إذ انحاز إليها القرويون بحماسة وإخلاص ، ثم لأن الأحرار المعتدلين من جهة أخرى كانوا يرون في عودة الدوق خلاصاً من الديمقراطية الشديدة ومن الاحتلال النمساوي : وكان أحرار طوسكانه كما وصفهم ريكاسولي « صبياناً ليس لهم عقل سليم ولا خلق ولا دراية . إذ تركوا الثورة تتلاشى من الضعف واهتموا كثيراً بأنفسهم وبأموالهم » ثم بوغت الأعيان الذين ألفوا الهيئة الحكومية بنشوب ثورة في ليفورنه وأدركوا أن خطر هذه الثورة قد تؤدي إلى الاحتلال النمساوي . فالتمسوا من فرنسه وأنجلترة أن ترسل أسطولها لتهديد الحركة ، ولولا معارضة الدوق لقبلت فرنسة الدعوة ثم ولى الوجهاء وجوههم شطر بيمونته ؛ ولكن حكومة تورينو أجابت أنها لا توافق ما لم

تشارك حكومة نابولي في الأمر وما لم يوافق الدوق الكبير نفسه على ذلك . وكان هذا سبقاً فارتبط بالتمسه واشترك في وضع الخطة لاستيلاء راديتسكي على البلاد .

وكان حين قابله المندوبون من هيئة الحكومة في جايته وعدمهم بإعادة الدستور وأكد لهم بأنه لا يساعد على حركة استيلاء من جانب النمساويين . بيد أن رسوله (سريستوري) الذي أوفده ممثلاً عنه إلى فلورنسه كان يعلم بتواطؤ سيده مع النمساويين على الاحتلال ، وقد اجتاز لواء من قوات القائد النمساوي أسبر الحدود واحتل لوكا وتقدم نحو ليفورنه فقاومت المدينة الجمهورية مقاومة المستميت . ولما أعلن مريستوري أن النمساويين انما أتوا من دون رضا الأمير غضب أسبر بسبب هذه الكذبة وأعلن بأنه لم يتحرك إلا بناء على رجاء الأمير نفسه ، وراح النمساويون يتهددون الأمير بالخلع إذا لم يسلك مسلكاً مرضياً فلم يبدأ من الخضوع لهم ودخل أسبر فلورنسة في ٢٥ أيار ، وفي اليوم ذاته تألفت وزارة جديدة ومارست أعمالها وكانت مؤلفة من المعتدلين الذين كان يظن أنهم راغبون في إنقاذ الدستور ، وبينما كانوا يخافون أن تترك الحامية النمساوية المدينة كانوا من جهة أخرى يسمعون إلى تخفيض قوتها إلى الحد الأدنى القرويين المضطهدين إلى العصابات التي كانت تنافس الحكومة في أعمال العنف والإرهاب وخرّبوا إحدى

المدن وقبضو على المتفرجين في إحدى صالات المراسح وافرغوا ما في جيوبهم .

أما دوقيتا وادى بووها مودينة وبارمة فظلتا كالسابق تابعتين للنمسة ، وقد عاد فرنسو الخامس إلى عرش مودينه وشارل لويس إلى عرش بارمه بمساعدة الجند النمسوى وأخذا يحكمان دوقيتهما بحماية هذا الجند . ولم يكن فرنسو مستبداً مثل أبيه ولم يكن بطبيعته كثير الميل للظلم ، ومع أن الأحكام التى صدرت ضد الأحرار كانت كثيرة وقاسية ومع أنه انتقل بلا رحمة من القرويين فإنه لم يعاقب المتهمين السياسيين عقوبات شديدة إذا قورنت بالفضاعة النمسوية فى لمباردية والرومانى ، فذلك كانت الرجعية خفيفة الوطأة فى مودينه .

وعلى نقيض ذلك جاوز الاضطهاد فى بارمه جميع الحدود وبعد أن أعلن شارل لويس عُدْم مشروعية جميع الأعمال التى قامت بها الحكومة الموقته تنزل عن الملك لابنه شارل الثالث ، واعتبر الأمير الجديد رعيته ألعوبة لشهواته وظلمه فألقى الدستور الموعود وظلت الإدارة العرفية مستمرة وأغلقت الجامعات وفرضت الغرامات الباهظة على أعضاء الحكومة الموقته وأرغم الموظفون والأساتذة والتجار والقضاة على خلق لحاهم وشواربهم ولم يسمح للأطباء والمحامين بمزواله مهنتهم ما لم يبرزوا شهادة تؤيد حسن سلوكهم السياسى ، ولأجل معاقبة القرويين الذين اشتركوا بالثورة بأجمعهم

منعوا من تسريح أى خادم مالم يوافق عليه الموظف ، بيد أنه أبرز ما يميز استبداده الجنونى إحياءه عهد السوط تصاغرته أمامه المظالم التى ارتكبها ضباط راديتسكى ، فجلد ثلثمائة شخص على الملأ خلال الخمسة الأشهر الأولى من حكمه . جلد بعضهم لأنهم أنشدوا نشيداً وآخرون لأنهم حاولوا أن يسكروا ضابطاً نمسوياً وبعضهم لأنهم انتقدوا قرارات الدوق أو لأنهم حازوا نشرة حرة أو اقتنوا جريدة من تورينو ، وضرب الأمير بيده بعض المارة لأنهم لم يحيدوه .

يزعم (فليكس فون شوارفستبرج) رئيس الحكومة النمساوية أن الطليان لا يستحقون المؤسسات التمثيلية التى قد تقودهم إلى الاصطدام بالنمسة ذلك الاصطدام الذى كان رجال الدولة فى العهد الرسمى يسمونه الفوضى وكانوا يصرحون بأن الحرية البلدية والإدارية التى تتمثل فى اقتراع ضيق هى وحدها تلائم تقاليد إيطاليا وتسد حاجتها وأن ديمقراطية نطل مقيمة بسلاسل الشرطة والتعليم الدينى هى التى تكفل وجود حكومة أبوية تعين على وفاء الشعب الأدبى والمادى . وكان شبح الاشتراكية والتشاؤم الأحمر يثير الفزع فى رجال الدولة فى بلد تجهل الاشتراكية والريبييه . وكانت هوة سحيقة تقذف بين الأحرار والكاثوليك ، فالنزعة الحرة فى نظر الكاثوليك تعنى ضياع الدين ثم إن كل ضربة تصيب البابوية ينعكس صداها فى الكنيسة وفى كل ما يهتم الكنيسة ويرى الكاثوليك أن الناس إذا تخلوا عن السير وراء الكنيسة

تفسد أخلاقهم وكانوا يخشون التفكير الحر ويمتقدون أن سلطة الأب المطلقة هو وحده الذى يحفظ الشبيبة من عدوى الحركات الشائنة ، المشؤومة . وقد يكون التعليم ضاراً إذا لم يشرف رجال الدين على التعليم الدينى وإذا لم يجبر التلاميذ على التمسك بفكرة دينية واحدة . فالنكاح المدنى مثلاً يسهل الطلاق والطلاق يندس الطقوس فالدولة يجب عليها أن تراعى الفضيلة وفوق ذلك كله يجب أن تبقى البابوية فى مقامها الرفيع مصدراً لكل سلطة . وبينما كان الكاثوليك فى إيطاليا يفكرون بما ذكرناه كان الكاثوليك فى العالم يعتبرون البابوية هى مؤسسة كاثوليكية أكثر مما هى إيطالية وكان رجال الدولة فى العهد الرجمى يقولون أيضاً بهذه النظريات فالعلاقات الخارجية للاتحاد الكاثولىكى الملكى يجب أن تصبح حلفاً جديداً ، وكانت مودينه وبارمه قد جددتا الاتفاقية الخارجية مع النمسة التى فرضتها عليها بالقوة ، وكان فليكس فون شفاتر تسنبرج يرغب فى أن يوسع هذه الاتفاقية بحيث يحولها إلى حلف سياسى يجمع كل الدول الرجعية فى إيطاليا ، فتدخل النمسة فيه باعتبارها مالكة إيلات إيطالية ويستهدف منح الحلف القيام بعمل مشترك لمكافحة الأحرار والصحافة وتأسيس جيش اتحادى وأن يتعهد المتعاقدون بأن يؤسسوا حرساً وطنياً وأن لا يمنحوا حق الاجتماع وأن لا يقوموا باصلاحات ما لم توافق عليها جميع الدول الداخلة فى الحلف . وكان (بلداسترونى) رئيس وزراء طوسكانة فى طليعة

الرجعيين بالفكرة . وأظهرت بارمه وروما استعدادهما للسير وراء بلد اسيروني بيد أن فرنسوا دوقه مودينه لم يرحب بهذا المشروع أما ملك نابولي فرفض الانضمام إليه رفضاً باتاً وكان رفضه هذا ضربة قاضية على المشروع وبما أن الاتفاق كان موجوداً بالفعل بين النمسة والدوقيات فإن الباب ظل مفتوحاً لمن يريد أن يلجّه . أما المواد الوحيدة التي روعيت في المشروع باستثناء الاتحاد التجارى فهي الاتفاق البريدى بمنح النمسة حق فتح مخابرات الوطنيين واتفاقية ربط السكك الحديدية بين طوسكانه ولبارديه والرومانى . أما النظريات التي أيدها الاتفاق فكانت ذات نتائج ايجابية من الناحية الدينية وكانت الكنيسة الكاثوليكية ضرورة لازمة لرجال الدولة الذين أدركوا ما فى سلطة البابا من قوة يمتد سلطانها فى كل أنحاء البلاد بواسطة الرهبان ولكي تذال النمسة وطوسكانه حماية هذه السلطة فإنهما استعدا للتخلى عن الاستقلال الاكثيروكى وكانت طوسكانه أول من تنزلت عن هذا الحق . فوقع بلداسيرونى فى ٢٥ — نيسان ١٨٥١ اتفاقية تمنح روما جميع ما كانت تطلبه وبذلك ظفر الأساقفة بحرية المخابرة مع المقام البابوى ومنحت لهم سلطة الرقابة على جميع المؤلفات الدينية .

وسلكت النمسة الخطة نفسها وكانت الحكومة سنة ١٨٥٠ قد منحت الاساقفة حرية المخابرة مع روما ووعدت بأن تقدم السلطات المدنية مساعدتها للاكثيروس فى المحافظة على الضبط

الدينى فى بعض الحالات واضحت الاتفاقية التى عقدت فى سنة ١٨٥٥ عهد خضوع تام للكنيسة إذ جعلت الحكومة التعليم الكاثولىكى تحت اشراف الأساقفة فى جميع المدارس الأولية والثانوية ومنحتهم حق الرقابة على المؤلفات اللاهوتية وحق القضاء فى جميع الشؤون الخاصة بالنكاح . واستمرت الكنيسة فى سيرها الظافر حتى تناول سلطانها أخيراً مودينه وبهذا يكون مشروع الحلف الرجمى العظيم قد أصاب بعض الفوز .

الفصل الحادى والعشرون

كافور

١٨٥٠ - ١٨٥١

حسب (بلد سرونى) أن بيمونته ستنضم إلى الحلف لا محالة إذ كان يشك فى أنها تظل محافظة على مؤسساتها الحرة وبعد أن طوقها الحركة الرجعية الظافرة . كان يجابه هذه الدولة الصغيرة التى تبلغ نفوسها خمسة ملايين اثنان وثلاثون مليوناً من نفوس النمسه ويضاف إليهم قوى إيطالية الحكومية بأجمعها . وقد كان هم رجال الدولة فى فيينا أن يحملوا بيمونته على التخلّى عن دستورها ، وكانت بيمونته ذاتها مصابة بعناصر الوهن والتفرقة ، فالأكليروس فى تورينو وبعض المناطق الريفية يسيطر على قسم كبير من الناحيتين حتى إذا ما حرضته روما استطاع أن يساعد الحزب النمساوى والحركة الرجعية . وكان الأميون فى الدولة ويبلغ عددهم ثلاثة ملايين ونصف مليون مرتعاً خصباً لاستغلال رجال الدين ، أما المثقفون من الأشراف فكان ميلهم للنمسه وروما أكثر من حبهم للوطن . إن هيبة الحكومة أصيبت فى حادثة نوفاره بضربة حالت شدتها دون أن تستعيد مكانها بسرعة ، أما الطبقة المنحطة

من اللاجئين فقد جلبت جرائم من الشعب ساريه لولا تقاليد البلاد في رعاية القوانين لأدت إلى اضطرابات اجتماعية خطيرة وكان الحصاد رديئاً . وأخذ الحلف النمساوى يهدد تجارة ييمونته ويسد أبواب نصف إيطالية في وجهها . أما البلاد الأجنبية بما فيها فرنسه وانجلترا فكانت لا تعطف عليها إلا قليلاً ، ناهيك بالرجعيين في أوروبا الذين كانوا يعتبرونها خطراً يهدد سلم القارة ؛ على أن في سياسة الحكومة نفسها ما يكفي لخلق الصعوبات . فحكومة ييمونته حذت حذو حكومتى فيينا و نابولي بإظهار سخطها على الثورة وصارت تدعو إلى احترام حدود جاراتها وبحجر بأنه ليس لها أى مطمع في تجاوز حدودها ولم يكن والحالة هذه أمام دازجيلو طريق آخر ، وأصبح من المتعسر استئناف سياسة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ من دون مساندة فرنسية وكانت حكومة فرنسه تبذل كل نفوذها لإبقاء ييمونته ساكنة ولكبت ميولها ومطامحها ، على أن الحكومة كانت تعلم جيداً أن الفرصة إذا حانت للتقدم فإن احترام الحدود يصبح مجرد ألقاظ ليس إلا . وكانت المعارضة حينئذ ضعيفة جداً لا تستطيع أن تعمل أكثر من مظاهرة وتأييد منهج دازجيلو . وكان المجلس قبل صدور الإرادة بحله قد أبدى رأيه الصريح في استنكار سياسة التساهل مع النمسه والحرص على صيانة شرف الراية الإيطالية ، واستمر على المطالبة بمنع جنسية إلى الإيطاليين المولودين في بلاد ييمونته ، ومن

الراجح أن الديموقراطيين لم يكونوا يمثلون مطلقاً شعور الأكرثية الحقيقى فى البلاد ، فقد كانوا أقوياء بين الطبقة المتوسطة كالتجار والصناع والموظفين فى النواحي . بينما كان أكثر الناهيين من المحافظين . وكان الرسوم الذى استصدره مونكالييرى بالحل من جملة الأسباب التى ضمننت للبرهان الجديد أكرثية محافظة .

وقد جاء انتخاب المائتين والأربعة أعضاء فى المجلس النيابى البيمونتى جواباً قاطعاً يفند التهمة الموجهة إلى الطليان بأنهم غير جديرين بالمؤسسات التمثيلية إذ ظفر المجلس بنواب رزينين أذكىاء وطنيين . ولم يؤلف الأعضاء أحزاباً متباعدة بل كان الأعضاء يتنقلون من فئة إلى فئة أخرى ، وكانت أكرثية الوزارة من عناصر لاتضامن بينها ، وكان يجلس فى أقصى اليمين عدد ضئيل من الرجعيين انتخبوا من أياله صافويه وكانوا قدماء فى مجلس الأعيان ولو أتاحت لهم فرصة لضربوا بالدستور عرض الحائط ، وكانوا يدعون بأن من واجب الحكومة الكاثوليكية أن تخضع للكنيسة ويعارضون بشدة كل سياسة تقدمية ويسعون إلى تخفيض قوة الجيش ، وكانوا يهددون قائلين : (إذا كان البيمونتيون إيطالين فيجب إذن أن تكون جبال الألبه هى الحد الفاصل بين فرنسه وإيطاليه) إلا أنهم كانوا يسندون الحكومة حين مهاجمة الديموقراطيين إياها وكانوا يتلقون الأوامر من روما ومن فينا أحياناً ويجلس فى اليمين نواب أكثرهم من الدستوريين المعتدلين الذين

قبلوا الدستور مخلصين له واشتركوا في الحرب وعطفوا على فكرة الاستقلال الإيطالي ، بيد أنهم كانوا يقاومون كل حركة تهدد استقلال ييمونته الذاتى أو يؤدى إلى نقل العاصمة من تورينو إلى مدينة أخرى ، وكانوا يؤلفون حزبا محافظاً حقيقياً ويخشون جانب الدموقراطيين وينزعون إلى تأييد امتيازات الكنيسة وحقوق الملك وكان دازجيلو وبانودينللى ينتمون إليهم ، وظل كافور بطلهم القوى إلى أن رأى صعوبة السير معهم فى القضايا الكليريكية والمالية ، وكان ريفل رئيسهم الحقيقى وهو من مدينة نيس وقد تولى وزارة المالية من سنة ١٨٤٤ إلى ١٨٤٨ وكان أشد رجال المدرسة القديمة محافظة .

أما حزب اليسار فكان قويا فى المجلس السابق ، أما فى المجلس الجديد فظفر بقوة كافية تمكنه أحيانا من التأثير فى الحكومة وتوجيهها ، ولكنه كان مشتتاً وغير متجانس ، ففيه الأحرار المعتدلون ، وهؤلاء كانوا فيما عدا القضايا الكليريكية لا يختلفون عن المعتدلين فى اليمين إلا قليلا ، وفيه المتطرفون الاشتراكيون المعتدلون . وكانت سياسته الخارجية هى نفس السياسة التى روعيت زمن الحرب وأبى أن يبدلها رغم الظروف ، ولكن هذا الحزب كان خير عضد للحكومة فى نزاعها مع روما ؛ وأما منهجه الاجتماعى فلم يكن على تفاهته يخلو من قيمة ، ومهما كانت معارضته قوية وهى معارضة لم يسر فيها على منهج واحد فإنه لم يكن يرغب فى إسقاطها

لأنه من الضعف بحيث لا يستطيع أن يتولى الحكم فضلاً عن أن
سقوط الحكومة قد يؤدي إلى أن يتولى ريفل الحكم .
أما نواب أقصى اليسار فيتألفون من ثلاثين نائباً وقد أيدوا
دازجياو بعض التأييد واعتقدوا بإخلاص الملك للدستور ثم أخذوا
يثقون شيئاً فشيئاً بنزعة كافور الحرة (الليبراليزم) حتى أنهم
اعتبروا أن اشتراكه في الوزارة ضمن سياسة الرقي والتقدم ؛ ثم
انقلب موقفهم الودى نحو الوزارة إلى تأييد تام ، وهكذا تألف
بالتدريج حزب وسط اليسار الذى كان يعتنق معظم آراء جماعة
اليسار ، إلا أنه يختلف عنها لأسباب انتهائية . وكان من حيث
العدد ضعيفاً لا يتجاوز العشرين ، لكن الكثيرين من أعضائه
كانوا من أقدر رجال المجلس ولم يكن زعيمه رتازى ذلك الرجل
المتطرف فى مبادئه كما كان يشاع عنه فى أوروبا المحافظة بأنه لم يكن
دموقراطياً بالمعنى المطلوب ، بله تدل جميع مظاهره على أنه كان من
المعتدلين الأحرار . ولم يكن قوياً متصلباً حتى أنه كثيراً ما كان
يفسح لحزبه مجال الكلام فيما يخالف آراءه هو ، وقد اعتاد أن
يتقاضى عن أخطاء الملوك الأمر الذى جعله صديق الملك الحميم ؛
ومع أنه كان من القوميين إلا أنه لم يكن يقول بتوسيع حدود
بيموته إلى أبعد من وادى (بو) ، ولم يكن يؤمن بوحدة إيطالية
وكان يشعر بضرورة وجود حكومة قوية ويدرك صعوبة إنجاز
الأعمال بلا أكثرية منظمة فى المجلس ، وكان ذا موهبة برلمانية

تجعله يتساهل ، وأحياناً يتخلى إلى حد ما عن منهجه السياسى لأجل ضمان استقرار سياسة حرة معتدلة لأن بيمونته أحوج ما تكون إلى سياسة حرة معتدلة ثابتة . وكان كافور يشاطره هذا الاقتناع .

وأُسفرت الانتخابات فى نهاية سنة ١٨٤٩ عن ظفر دازجيلو بأكثرية ساحقة فى المجلس فأصبح بذلك قادراً على تنفيذ سياسته . وكان دازجيلو هذا ذائع السيط فى جميع إيطاليا دلت شهرته أبعد من ذلك فى الخارج . إذا كان يمثل تراث الحكومة الدستورية فى بيمونته ، ولكنه كانت تعوزه الصلابة التى يجب أن تتوفر فى الزعيم ، وجعلته حوادث سنتى ١٨٤٨ — ١٨٤٩ يخاف الديمقراطية كثيراً ، ولا ريب فى أن الذين انتقدوا عدم اهتمامه بمصير روما والبندقية كانوا على حق ، ومع أنه اعترم المقاومة حتى النفس الأخير إذا هاجت النمسة ، ورغم تقديره بمكانة بيمونته فى إيطاليا فإنه لم يتخذ أى تدبير لتتأهب المملكة إلى تقدم جديد . وكانت سياسته سلبية لا ترمى إلى أكثر من الاحتفاظ بكرامة الأمة وإطلاع الناس على أن الحكم الدستورى لا يتنافى النظام بأى صورة والعمل على كسب احترام الأمم الأخرى . ولا شك فى أن هذه السياسة لم تكن جبارة تكفى كفاية عظيمة وأمل ذلك هو سر نجاحها . وفى الواقع أن جل ما كانت تحتاج إليه بيمونته فى ذلك الحين الاهتمام لتعيش بسكون وهدوء وبذلك

أنجز داز جيلو نبوته القائلة «سيحين الزمن الذى يكون — النجاح فيه حليف أكثر الناس نزاهة لا أشدهم قوة أو أعظمهم قدرة وكفاية ، ولكن داز جيلو فشل فى سياسته الداخلية فبينما كانت الجرائد الاكليريكية تتمتع بحصانة واسعة ، كانت الشرطة تزعج الجرائد المتطرفة ، ولما هاجم بعض الضباط دار إحدى الجرائد لم يتخذ فى حقهم أى تدبير . أما الاجتماعات العامة فقد منعت وكان يميل إلى طرد اللاجئين الكثيرى الشعب كما أنه لم يسع فى جعل المؤسسات البلاد تتمشى مع روح الدستور وإصلاح حالتها العامة وتطهير الإدارة من الفساد الطارى عليها إلا يسيراً .

وعلى الرغم من حرصه الشديد على الاحتفاظ بالسكون فقد تعذر عليه أن يتحاشى النزاع مع روما . وتقاصيل ذلك أن ييمونته كانت متأخرة كثيراً فى شؤون التشريع الاكليريكي . فالكنيسة كانت لا تزال تحتفظ بامتيازات الغيت منذ مدة طويلة فى نابولى وطوسكانة ومودينة وفى الامبراطورية النمساوية فكانت المحاكم الدينية تنظر فى جميع الأمور المدنية والجنائية وكان لأغلب الكنائس حق الحى ، فاذا استطاع المجرم أن يلتجئ إليها نجا من حكم القانون . وكان الأساقفة يشرفون على المؤسسات الخيرية وعلى قسم من المدارس وقد منحهم الدستور نفسه حق منح تداول الكتب المقدسة والمؤلفات اللاهوتية التى يحضرونها هم ولم يكن فى الإمكان عقد النكاح إلا بواسطة الراهب .

وبوجود الدستور يتعذر إبقاء مثل هذه الامتيازات لأنها تخل بشروطه الأساسية ولقد أدركت أول — وزارة دستورية أن الاتفاقية مع روما التي تثبت امتيازات الكنيسة يجب معالجتها من جديد، وكان روميني قد أوفد بدون جدوى للمفاوضة على شروط أحسن وكان أمام الإصلاحيين سياستان فكافور يرى اجتناب إرهاب الكنيسة بأملاتها ونظامها الداخلي ومقابلة التعصب بالتسامح وإلغاء إشراف الحكومة الضئيل المنصوص عليه في الاتفاقية القديمة، وكان يعتقد بأن الكنيسة سوف تتخلى عن السياسة إذا سلمت من العقبات المزعجة بيد أن أكترية الأحرار تجنبت القيام بتجربة كانت تبدو خطيرة كثيرة على شعب ذي ثقافة قليلة ولا يتمتع باستقلاله الروحي إلا قليلا حيث كانت الكنيسة تتوعد بأن تصبح قوة سياسية عظيمة تستطيع أن ترغم المؤسسة الدستورية وأن تكون خطراً دائماً للحكومة حرة ومع ذلك كان الحزبان قد اتفقا على إلغاء المحاكم الكليركية، وتظاهر رئيس أساقفة (تورينو) فرنسوني بمقاومة كل إصلاح وكان زميله أسقف (آستي) قد اتهم بأمور شائنة، فهرب أمام تهديد الجماهير وأرسل دازجيلو في نهاية سنة ١٨٤٩ القاضي سكاردي وهو أحد المعتدلين المعروف بنزاهتهم إلى روما يطلب تبديل فرنسوني وأسقف آستي والتساهل في بعض ما يتعلق بتنفيذ الاتفاقية ولكن — ما أسرع ما عاد دون أن يحصل على شيء سوى أن انتوتللي عرض

عليه اقتراحات بتمنر قبولها ، ودخل سكاردي الوزارة فعرض في بداية سنة ١٨٥٠ لائحة باقتراحاته الشهيرة وهي تلخص بإلغاء المحاكم الكليركية وإلغاء حق الحمي واتخاذ العقوبات بحق المجرمين من رجال الدين على السواء واقتراحات أخرى كما أنها تتضمن وعدا من الحكومة بتقديم لائحة تقضى بمشروعية النكاح المدني وقاوم نواب اليمين هذه اللائحة بحجة أن موافقة روما على أى تعديلات في قانون الكليركي لا بد منها ولكن كان على الحكومة أن تختار بين الاتفاق مع البابا والدستور وطبيعى أن تختار الثانى وكان الفريق الأكثر اعتدالا فى اليمين وجميع أعضاء اليسار بجانبها واندفع رأى العام فى تورينو فى تأييدها وبلغت ثقته على الرهبان حداً اضطرت معه الحكومة إلى استعمال القوة لمنع إحدى المظاهرات العدائية ، وقد مر قانون سكاردي من المجلس بعد أن أقره بمائة وثلاثين صوتاً ضد ستة وعشرين صوتاً ؛ ثم مر من مجلس الأعيان بتأييد أكثرية اثنين ضد واحد ، وأبى روما الاعتراف بما جرى ووقف البابا من هذا الاختلاف موقفاً غير معقول ، إذ رفض أن يمنح حقاً منح مثله الأمم الكاثوليكية جميعها ، ذلك لأنه يكره هذه الدولة الإيطالية الحرة الوحيدة ويخشها كثيراً وغادر سفير البابا تورينو ورأى الأساقفة شبح الثورة وأصدر فرانسوى كتاباً يأمر به الكليروس بأن لا يكثرثوا للقوانين الجديدة وأن لا يحضروا أمام المحاكم المدنية إلا مكرهين ، ولما أنهم

بالتحريض على عدم الإطاعة وطلب منه الحضور أمام المحكمة
امتنع فحكم عليه غياباً بالسجن شهراً واحداً .
وعلى أثر ذلك اشتد سخط رجال الدين حتى أنهم تهددوا
بالحرمان كل من اشترك في وضع القانون الجديد . ولما أصبح
(سانتاروزا) وزير الزراعة على حافة الموت رفض الراهب زيارته
فمات من دون تركية . ثم رفض الإكليروس بتحريض من
فرانسوى القيام بمراسيم دفنه مما آتار سخط الناس حتى كان
جنار سانتاروزا مظاهرة وطنية عظيمة . وقبضت الحكومة على
فرانسوى واعتقلته فى قلعة (فنسترلله) وأخذت فرنسه تضغط
على دازجيلو بشده للتزول عند إرادة روما . وجرت فى الصيف
محاولتان للتفاهم ففشلتا ذلك لأن أنتولى لا يريد أن يرجع عن
رأيه القائل بأنه لا يجوز خرق الاتفاقية من دون رضا الفريقين
هذا من ناحية ولأن الرأى العام فى بيموته كان يطالب بإلحاح
بتخاذ تدابير جديدة ضد الكنيسة من ناحية أخرى . وقد ألغيت
زكاة ساردينه مقابل تعويض . وطالما ألبأ المجلس بشدة اندفاعه
هذا الكبير الحكومة إلى السير فى طريق الشدة . وأصر حزب
اليسار على الحكومة أن تفرض حقوقها فى الإشراف على كرامى
تدريس اللاهوت فى الجامعات للقضاء على مهاجمة الأساتذة للدستور ،
ولكن كافور كان مخالفاً لكل تحديد يمس حرية التدريس وبناء
على تدخله تأجلت المذاكرة حول القانون فانتهز البابا هذه الفرصة

للانتقام من جامعة تورينو فخرم (نوبيز) أستاذ اللاهوت فيها لأنه أيد حقوق الدولة في الإشراف على الشؤون الكليريكية . وربما كانت الحكومة تميل إلى التساهل في هذه القضية وفي بعض القضايا الأخرى المختلف فيها فقد تأجل البحث في القضايا الخطيرة كالنكاح المدني وموازنة الإكليروس . ولما ظهر للبيان أن اختلافاً شديد الخطورة مجهول العواقب يوشك أن يقع تجلت الحاجة إلى وجود يد أقوى من يد دازجيلو يستطيع أن يواجه الأزمة .

وكانت شهرة كافور المتزايدة قد طغت على شهرة دازجيلو . لم تكن بداية حياة كافور البرلمانية موفقة . فقد جعلت علاقته الارستقراطية والآراء الرجعية التي كانت تعزى إليه غير محبوب من الشعب . بيد أنه استطاع بعد ذلك أن يفرض شخصيته وأن يوطد نفوذه فدل على متانة خارقة وإرادة صلبة وجرأة نادرة وذاكرة متوقدة ومقدرة على العمل فائقة . وكانت خطاباته ذات تأثير في المجلس النيابي وكان متحلياً بكل ما يقتضى جلب ثقة الوسط من الناس وكان تقريباً يرقب الرأي العام ويتحاشى الانسياق في تيار لا يلائم ظروف الزمن العملية إلا فيما ندر ، وكانت سياسته سياسة حزم بكل معنى الكلمة . وكان يقول : « إن على إيطاليا أن تنشى نفسها بالحرية ولا فائدة من إنشائها عن غير طريق الحرية » . وكان قائماً كل القناعة بأن الشعب سيدرك الحقيقة عاجلاً

أو أجلاً ، ولذلك فإنه كان يرفض تقييد حرية الصحافة ويتذمر من إعانة الحكومة جرائدها .

وقد طبق المبادئ الحرة نفسها في معالجة قضايا الكنيسة والدولة ، فكان يعتقد أن الكنيسة المنصونة من سيطرة الحكومة تستطيع أن تلعب دوراً خصباً في التطور الاجتماعي . ولو خير في الأمر لترك الكنيسة تحتفظ بكامل حريتها في أنظمتها الخاصة وفي طقوسها وكان شعاره في ذلك (كنيسة حرة في دولة حرة) . وكان يتوقع أن يرى النمساويين يوماً ما مطرودين من إيطاليا والسلطة الزمنية ملغاة ، ومما لا شك فيه بأنه كان يؤمن بإيطاليا دولة حرة موحدة ولكنه ظل في هذه القضية شأنه في القضايا الأخرى ذلك الانتهازي الذي يترقب الفرص ولا يتقيد بأية طريقة ، وكان هدفه وقتئذ السعي لرفاه ييموثته واستخدام نفوذه في مصلحة البلاد الإيطالية الأخرى إذا ما سنحت الفرصة . ولم يكن في البدء ينتمي إلى حزب ما ولكنه زج نفسه في اتجاه حر بتأثير الحماسة سنة ١٨٤٨ ثم جعله الشطط الذي حدث في الشتاء الذي تلا تلك السنة من المحافظين ، ولكنه أيقن على أثر الجمعية التي عقبت نوفاره أن الاستبداد أشد خطراً من تهوئش حكم الدهماء . وحركت نقمته من ضعف دازجيو ساكن نزعته الحرة وجعلته يقدمها على كل شيء . وقد قال بضرورة تأليف حكومي قوي كما ارتأى رتازي وسمى كثيراً قبل صدور الإرادة بمحل المجلس في التأليف بين

الأحزاب وكان يفضل الاستناد إلى اليمين إلا أنه رأى صعوبة الاتفاق مع قسمه المتطرف في القضايا الدينية والتجارية . وقد شرع يتهدد الوزارة بلطف في خطبه بالجلس مما جعلها تسير بحذر في الإصلاح وشعر الوزراء بحاجتهم إلى رجل قوى وبتأثير من القائد لا مامورا والملك عين في ١١ تشرين الأول ١٨٥٠ في وزارة الزراعة والتجارة الشاغرة .

وقد تنبأ الملك بأن كافور سرعان ما يجعل الوزراء طوع إرادته ويصبح الرئيس الفعلي بينهم . وتنفس الأحرار الصعداء بتعيينه واعتبروه بشيراً في رغبة الوزارة في القيام بإصلاحات إكليريكية أخرى . بيد أن كافور انصرف إلى الأمور الاقتصادية حتى أنه شرع قبل أن يصبح وزيراً للمالية في نيسان بتنفيذ سياسته في حرية التجارة إلى حد بعيد ، وكان اشتهر قوانين لتنظيم الجمعيات باسم النقابات ؛ والتسليف الزراعي ومشاريع التعليم الزراعي وإصلاحات البريد والسكك الحديدية بعض ما تم على يديه في سبيل رقي ييمونته وإعانة تجارتها ، وقد ألغيت الضرائب الإقطاعية التي كانت لا تزال تجبى في بعض المناطق وأبطل حق البلديات في تقدير سعر الخبز . بيد أن جميع هذه المشاريع ذات شأن إذا قورنت بما قام فيه من إصلاحات عظيمة في الشؤون المالية . وكان كافور يرى أن تحسين المالية وتنظيمها وتقويتها أمور جوهرية تمس حياة الدولة ووجودها ولا سيما أن الخزينة كانت مثقلة بسبب الغرامات الحربية

الواجب دفعها إلى النمسة ونفقات الجيش والإعانات التي تدفع إلى السكك الحديدية ، وقد بلغ عجز ميزانية سنة ١٨٥١ ستين مليوناً من الليرات^(١) وزادت نسبة الضرائب ثلاثين في المائة وتجاوزت فائدة الديون من مليونين إلى ثلاثين مليون ليره سنة ١٨٥٢ فالتفتى بعد النظر للأخذ بسياسة الاقتصاد من النفقات وذلك يتطلب وجود مالى جرىء يستطيع أن يطلب إلى البلاد بأن تستعد لزيادة ديونها . وإذا كانت ييمونته تريد أن تستعد لحرب جديدة فينبغى لها الاحتفاظ بالجيش وتنظيم الأسطول وصرف نفقات كبيرة لإقامة الحصون كما أنه يجب مدسكك حديدية لإنشاء صناعاتها وفتح نفق عبر جبال الألبه وقد أدت هذه الأعمال إلى تضخم فى القروض وزيادة فى الضرائب ، فرأى كافور أنه يجب أن يكون للبلاد من القدرة ما تستطيع بها أن تجابه هذه التكاليف الجديدة فلا يتسنى لها ذلك إلا بزيادة مصادر الثروة فيها ، وقد اعتقد أنه يستطيع أن يجعل الصناعة والتجارة كفيلتين بتحقيق تلك القدرة وذلك بالأخذ بمبدأ حرية التجارة قدر الإمكان بيد أنه لاحظ بأن رأى العام لم يكن متهيئاً لتقبل مبدأ حرية التجارة فى أوسع معانيه فقرر عمله على عقد اتفاقيات تجارية ، وقد استطاع ، أخيراً بالاتفاقيات التى عقدها مع فرنسه أولاً ومع بلجيكة وإنجلترا بعد ذلك ثم مع سويسره والاتحاد الجرمنى والبرلمانى والنمسه نفسها ،

(١) الليره الإيطالية تعادل الافرنك .

أن يفخر بعد بضع سنوات بأن التعريفة الجمركية البيمونتية أكثر سخاء من تعريفات القارة ، وظهرت أول نتائجها الاقتصادية فكاد التهريب يزول من الوجود ، ولم تصب الجمارك بأية خسارة في الواردات واندفعت بيمونته في طريق التقدم التجاري السريع حتى أصبحت مخزناً للحريز إيطاليه وأخذ كافور بعد ذلك يحلم بإقامة حلف بين بيمونته والدول الغربية ليجابه به الحلف الاستبدادي الشرقى التى عقدته النمسا مع أمراء إيطاليه .